المختار- تاريخ الأسطورة وأسطورة التاريخ

المركز الأكاديمي للأبحاث

\

المختار

تاريخ الأسطورة وأسطورة التاريخ

فلسفة التوبة والثأر

ميثم الجنابي

المختار تاريخ الأسطورة وأسطورة التاريخ: فلسفة التوبة والثأر

???????????

ميثم الجنابي ، التقويم اللغوي: ؟؟؟؟؟

تصميم الكتاب وغلافه :علي الحسناوي

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث / العراق - تورنتو- كندا

The Academic Center for Research

TORONTO -CANADA

Library and Archives Canada/موثق بدار الكتب والوثائق الكندية

ISBN ???????????

website\\http://www.acadcr.com   Email: info@acadcr.com

nasseralkab@gmail.com

بيروت - الطبعة الأولى 2019

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر : بيروت- لبنان2047-7611

الجناح- شارع زاهية سلمان- مبنى مجموعة تحسين الخياط

Tel:+961-1-830608 — Fax: +961-1-830609

Email:tradebooks@all-prints.com   Website:www.all-prints.com

ميثم الجنابي

(بروفيسور في العلوم الفلسفية)

الكتب المنشورة (الإشارة هنا للطبعة الأولى فقط)

1. التراجيديا السياسية للطوباوية الثورية. دار الأهالي، دمشق، 1990.
2. علم الملل والنحل . ثقافة التقييم والأحكام. دار عيبال، دمشق. 1994.
3. الإمام علي بن أبي طلب– القوة والمثال. دار المدى، دمشق – بيروت . 1995.
4. التالف اللاهوتي الفلسفي الصوفي (أربعة أجزاء) ، دار المدى، دمشق – بيروت 1998.
5. "الإسلام السياسي" في روسيا،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1999.
6. الغزالي. دار ادوين ميلين بريس، نيويورك، 2000 (بالروسية)
7. الإسلام السياسي في جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2001
8. روسيا – نهاية الثورة؟، دار المدى، دمشق، 2001.
9. حكمة الروح الصوفي (جزءان)، دار المدى،دمشق، 2001.
10. اليهودية الصهيونية في روسيا وآفاق الصراع العربي اليهودي، دار العلم، دمشق، 2003
11. الإسلام في أور آسيا، دار المدى، دمشق، 2003
12. العراق ومعاصرة المستقبل، دار المدى، دمشق، 2004
13. اليهودية الصهيونية وحقيقة البروتوكولات، دار الحصاد، دمشق، 2005
14. العراق ورهان المستقبل، دار المدى،دمشق، 2006.

15. الحضارة الإسلامية – روح الاعتدال واليقين (ج1)، دمشق، 2006
16. جنون الإرهاب المقدس، بغداد 2006.
17. المختار الثقفي – فروسية التوبة والثأر، دار ميزوبوتاميا، بغداد 2007.
18. أشجان وأوزان الهوية العراقية، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2007،
19. فلسفة الثقافة البديلة، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2007،
20. العراق والمستقبل – زمن الانحطاط وتاريخ البدائل، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2008.
21. هادي العلوي-المثقف المتمرد، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2009.
22. حوار البدائل، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2010
23. التوتاليتارية العراقية- تشريح الظاهرة الصدامية، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2010
24. فلسفة المستقبل العراقي، دار الكتاب الجامعي، العين- الإمارات العربية المتحدة، 2010.
25. الفلسفة واللاهوت عند الغزالي،دار المرجاني، موسكو، 2010، (بالروسية)
26. فلسفة الهوية الوطنية، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2012
27. الحركة الصدرية ولغز المستقبل، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2012
28. ثورة "الربيع العربي" (فلسفة الزمن والتاريخ في الثورة العربية)، دار ميزوبوتاميا، بغداد، 2013
29. فلسفة الإصلاحية الإسلامية الحديثة، دار صدره، موسكو، 2014 (بالروسية)
30. الإسلام: حضارة وثقافة وسياسة، دار صدره، موسكو 2015، (بالروسية)

31. المركزية الإسلامية الحديثة – الظاهرة الإسلامية. كيولن، ألمانيا 2016، (بالروسية)

32. فلسفة البدائل الثقافية (البحث عن مرجعية الفكرة العربية)، دار ميزوبوتاميا، بغداد،2018

33. الفكرة الإصلاحية الإسلامية الحديثة، دار ميزوبوتاميا، بغداد،2018

34. العقلانية واللاعقلانية في الفكر العربي الحديث، دار ميزوبوتاميا، بغداد،2018

35. الفكرة الإسلامية المعاصرة وآفاقها، دار ميزوبوتاميا، بغداد،2018

36. فلسفة الفكرة القومية العربية الحديثة، دار ميزوبوتاميا، بغداد،2018

37. التآلف اللاهوتي الفلسفي الصوفي عند الغزالي، مطبعة الجامعة الروسية، موسكو، 2018 (بالروسية)

38. تأملات حول الحضارة الاسلامية، دار العارف، بيروت، 2018

39. الزمن والتاريخ (نقد الراديكالية والأوهام "المقدسة".)، دار العارف، بيروت، 2018

40. محمد – رسول الإرادة، دار العارف، بيروت، 2018.

41. الأشباح والأرواح.(ج1)، المركز الاكاديمي للأبحاث، العراق- كندا، 2019.

42. الاستشراق الروسي(المرحلة التأسيسية)، المركز الاكاديمي للأبحاث، العراق- كندا، 2019.

43. الحضارة الإسلامية والثقافة الفلسفية، موسكو، مطبعة الجامعة الروسية، 2019 (بالروسية).

الإهداء إلى

تاتيانا نيكولايفنا الجنابي

المقدِّمة

إن الرجال العظام تولد وتموت. وفي مجراها تعاني من أحوال مختلفة، تحب وتكره، وتتذكر وتنسى، وتصبر وتجزع، وتشتهي وتنفر، وتتحدى وتهرب . لكن هذه الأحوال تبقى في نهاية المطاف جزء من حياتها الخاصة .مما يجعل منها مادة للتأمل التاريخي، ونموذجا للمحاكاة السياسية، وذكرى للأساطير والحكايات، ولغزا للاهوت والأهواء، وعبرة للتعقل، واختبارا للمنطق .لكنها حالة تشير بدورها إلى أن أي من الصيغ المذكورة أعلاه لا يمكنها رؤية حقيقة الشخصية الكبرى بوصفها "مأثرة".

إن رؤية الشخصية الكبرى بوصفها مأثرة يفترض الانغماس في أعماقها الحرة والبحث فيها عن الأثر التاريخي فيما تقوم به وتفعل .لاسيما وأنها الحالة الواقعية لوجودها، والأسلوب الفعلي لأدراك حقيقة تأثيرها في التطور اللاحق للأمم والدول والثقافات .

إن حقيقة الشخصيات الكبرى هي اثر فعلي في وعي الذات القومي والثقافي .وما عداها مجرد ذكرى قابلة للنسيان أو الاستحداث بوصفها" بقايا حجرية "قابلة للتأمل .فكل شخصية غير قادرة على العيش والحياة بوصفها روحا في الأجيال المعاصرة وبمعاييرها، هي من متحجرات الماضي مهما كانت سمعتها وشهرتها .وهو السبب الذي يجعلنا نقرأ ونسمع مرات كثيرة عن خلفاء وسلاطين وقواد، دون أن يثير أي منهم قدرا ضئيلا من معاناة وعي الذات .وهنا يكمن الفرق الجوهري بين رجال التاريخ ورجال الزمن، بين

مأثرة وأثر بلا مآثر .وذلك لأن رجل التاريخ هو مأثرة حية في وعي الذات القومي والثقافي، ومن ثم قابلة للتجدد والتوسع والتعمق والتفاعل مع إشكاليات المعاصرة .

وقد ميزت هذه الصفة شخصية المختار بن أبي عبيدة الثقفي، بحيث جعلت منه مأثرة عميقة اقرب ما تكون إلى منظومة حية في وعي الذات الروحي والأخلاقي والسياسي .مما جعل من آثارها حوادث ومواقف ونتائج يمكن تأملها في مجرى الصراع الاجتماعي والسياسي الحالي في العالم العربي والعراق خصوصا.

إننا نعثر في تاريخ المختار على تاريخ المفاهيم والقيم والمواقف بوصفها أحداثا حية معاصرة .كما يشير هذا العثور إلى أن ما عانى من اجله وقام به، وما اتخذه من مواقف، وما تعرض له من انكسار، ما زال يسري في تيار الزمن الحالي، لكي يتحول مع مروره إلى جزء من تاريخ وعي الذات .بمعنى انه مازال يعيش بكامل كينونته القديمة في مسار الأحداث الحالية .الأمر الذي يجعل من حيويته الفعلية طاقة مثيرة بالنسبة للمشاعر والأذواق والإدراك والمفاهيم والقيم والمواقف التي تتجاذب القوى الاجتماعية والسياسية في صراعها .

فقد كان المختار شخصية عراقية عربية إسلامية تتماهى في التاريخ مع آثاره ومآثره الكبرى .بحيث جعل ذلك منه قوة سارية في أعمق أعماق الفكرة

الحرة، كما جعل منه أحد أجمل المساعي الجليلة من اجل الحق والعدالة، وأحد اصدق نماذج العمل من اجلها في ميدان الصراع الاجتماعي والسياسي وقد يكون من الصعب بالنسبة للإنسان المعاصر أن يتحسس بصورة مباشرة طبيعة وحجم المعاناة التي كان يواجهها في ثنايا الوحدة والعزلة، وفي أوساط الحشود حالما تنظر إليه مسترقة السمع لكل كلمة ومتأملة معنى الإيماء والحركة في اليدين والعينين، لكنه يجبر العقل والضمير على رؤية ما فيه من نموذج مدهش لما ادعوه بالمثقف المجاهد .وهو مثقف سوف لن يفقد قيمته مع مرور الزمن لأنه جزء من تاريخ حي، هو تاريخ وعي الذات الثقافي.

فقد جسّد المختار في حياته وموته، أفعاله ومآثرها، أقواله وآثارها ، ذاكرته وذكراه، حقائق الروح الأبدي ومرجعياته القائلة، بان البقاء في التاريخ يفترض الذوبان في مجراه الحي .لكنه ذوبان جعل منه على الدوام قطرة منعشة وسيلا عارما، وهواء عليلا وعاصفة هوجاء، ودفئا لذيذا ونار محرقة، وترابا للقصور والقبور، أي مكونا حيا ومعاصرا، شأن كل الشخصيات الفاعلة في تاريخ وعي الذات .ويكفي المرء النظر إلى أحداث العراق الحالية لكي يحس ويدرك ويفهم قيمة المختار بالنسبة للعقل والضمير الحي.

ميثم الجنابي

تقديم الطبعة الثانية

إن الجديد في هذه الطبعة هو المختار نفسه. فهو من بين الشخصيات التاريخية العربية والإسلامية، التي لا تفقد بريقها مع مرور الزمن، وذلك لأنه من بين أوائل الرجال الذين أرسوا أسس التاريخ السياسي والروح الأخلاقي في الموقف من النفس أولا، ومن السلطة الثانية. الأمر الذي جعله من بين أول طبقات المثقفين بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. فقد أثارت وما تزال تثير شخصيته وملامحها البارزة والمغمورة في تاريخ الوعي السياسي، إشكاليات في المواقف منه وتقييمه. بمعنى انه حقق في ذاته ما يمكن دعوته بالفيصل المستتر بين حدين ونمطين في الموقف من الدولة والنظام السياسي والقيم.

لفد كان المختار الثقفي استمرارا ونفيا لنموذج الخوارج. فحقيقة الخوارج تقوم في إن كامل كينونتهم تتحقق في ما نراه من قلوب تبكي وعيون فرحة. فهي الحالة المثلى لتناغم الروح والجسد أو تكاملهما المخلص بمعايير الحق والحقيقة. مما جعل من الممكن تعالي الروح في سماء التضحية والشهادة، واقتراب الجسد من بيداء المعارك. أما المعنى الحقيقي لهذا التناقض فيقوم في تحول الإبادة إلى أبد، بمعنى تحول التضحية والاضمحلال في سديم المعارك إلى تخليد فكرة الحق والحقوق الأبدية. من هنا ظهور فكرة "حكم الأزل" وليس حكم الأفراد. إن لم تعن فكرة الخوارج الأوائل عن انه "لا حكم إلا لله" سوى الحكم البشري الرفيع لأنه مرهون برؤية محددة هي عين "الوحي الإلهي".

وليس "حكم الله" في رؤية الخوارج سوى رؤيتهم الذاتية. وتقترب هذه المعادلة من حدود المعضلة العصية على الحل، لكنها معقولة بمعايير ومنطق الإخلاص المعنوي. بحيث جعل هذا المنطق منهم نيازك الوجدان الإسلامي الفائر أمام فتور النخبة المترهلة بالثروة المسروقة، أي أمام نخبة لا تسمع بسبب انسداد سمعها الباطن، ولا ترى بسبب عميان بصيرتها، ولا تتحسس حقائق الأشياء بسبب يبوس أعصاب وجدانها الفردي، ولا تتذوق طعم الأبد لأنها محكومة بأوهام الأزل. وليس مصادفة أن يخرج مثقفو الخوارج الأوائل من بين جموع القوى العربية الإسلامية كما لو أنهم قوى غريبة، سرعان ما جرى تساقطها في حروب شرسة. أما البقية الباقية فقد جرى تجاهلها كما لو أنها قوى مجهولة. أما في الواقع، فإن خروج مثقف الإخلاص المعنوي لا يتحمل الانتظار الطويل، لأنه من طبيعة النيازك الخارقة والشهب اللامعة. مهمتها العدم في كون الوجود.

لقد بلورت الخوارج جملة من المبادئ الجوهرية مثل الحق، والعدالة، والانتخاب الاجتماعي، ورفض قرشية السلطة والنزعة القبلية، والحكم بالقانون (لا حكم الا لله)، وأن حقيقة الإيمان هو العمل، وأن محك الإيمان وحقيقته هو العمل بما يتوافق مع الشرع، وفكرة التوبة، وعقاب مرتكب الكبيرة.

وقد دخلت فكرة التوبة وعقاب مرتكب الكبيرة في صلب الفكرة السياسية للمختار. ووجدت تعبيرها النموذجي في شعار (يا لثارات الحسين). وفيها تحققت الأبعاد العميقة للفكرة الجوهرية التي بلورها المختار للمرة الأولى ألا وهي إن توبة أولئك الذين وقفوا إلى جانب السلطة بالضد من الحق تستلزم توبة اللسان والجسد والعمل. وبهذا جعل من شعار الحركة الاجتماعية السياسية التي بلورها وقادها هي احقاق الحق. وإن معنى الثأر السياسي هو عقاب على الخطيئة وليس على الخطأ. إضافة لذلك انه جعل من العقاب التاريخي عقابا سياسيا، ومن العقاب السياسي عقابا تاريخيا. بمعنى انه أسس لفكرة إعادة النظر العملي بالماضي والالتزام بأحكامه. وتوج كل هذه المبادئ والمواقف في اعلان فكرة الحرية والدفاع عنها. وأسس للمرة الاولى والأخيرة في تاريخ الفكر السياسي الاسلامي المرجعية الفكرية الكبرى القائلة، بأن الحرية والتحرير ليس هبة بل استحقاق ينبغي تعميده بالعمل والكفاح والتضحية. الأمر الذي جعل من اسمه ومصيره كيانا واحدا! لقد اختاره التاريخ وليس الزمن! من هنا بقاءه حيا في الذاكرة الحية للأحرار.

الباب الأول

المختار الثقفي

الفلسفة السياسية للحركة المختارية

الفصل الأول

من التوبة إلى "الثأر"

إذا كان مقتل الإمام علي بن أبي طالب هو مقدمة المأساة السياسية الكبرى للخلافة العربية الإسلامية، فإن مقتل ابنه الحسين هو خاتمة انهيارها الروحي. وهو السر القائم فيما يمكن دعوته بالتناسخ الوجداني للمأساة في مأساة اشد واعنف، رغم أن مقدماتها تكمن في أبيه سواء بالمعنى الجسدي أو الروحي. فللآباء اثر في الأبناء لا سبيل إلى معرفته إلا في المصير الفردي. إذ تعطي هذه التعزية الجميلة للفكر اللاحق إمكانية التأمل والبحث عن عبرة وقيمة ومعنى وحقائق لا علاقة لها بالتسطيح المميز للتفسير الجبري وذهنية القضاء والقدر. وحتى حالما تجد هذه الذهنية لنفسها أثرا في الفكر العقلي الحر، فإنها تبقى جزء من حماسة المروءة الباحثة عن تعويض متسام للهزيمة والانكسار. لكنه تعويض تتحدد قيمته وأثره بالنسبة للثقافة ومواقفها العملية بكيفية تأسيس البدائل فيه.

والبدائل على قدر الأحداث، تماما كما أن آثارها على قدر ما يحفره العقل والوجدان من مآثر في النية والفعل والخاتمة. ويمكننا العثور على هذه الصيغة المكثفة فيما اصطلح عليه لاحقا بعبارة "فاجعة الطف" و"مذبحة آل البيت"

و"استشهاد الحسين" و"مقتل سيد شباب أهل الجنة"، و"واقعة كربلاء" وكثير غيرها مما جمع في تصويره مسار وتعبير اللغة الباحثة عن تعزية في "عزاء الحسين" الذي ما زال يجري في ذاكرة العراقيين بقوة لا يعادلها غير لهيب تموز الشمسي والثقافي.

إذ ليس العزاء الحسيني الواسع الانتشار والمتغلغل في أدق مسام الجسد العراقي سوى المظهر الخارجي لعزاء الروح الباحث عن تسلية له في وجدان الذاكرة، ورغبتها في البقاء ضمن حيز الانتماء للنفس. وهو انتماء عريق في العراق للعراق. فقد قتل عمر بن الخطاب وهو عظيم الخلفاء دون أن يبقي اثر له في عزاء الروح. وكان الأمر مختلفا لو قتل في العراق. لقد اضمحل في غبار يثرب ورمال المدينة وذاكرة النصوص الميتة. بينما بقي الحسين وقبله أباه في روح العراق. وذلك لعراقتها وقدرتها على تمثل الحق والحقيقة والإبقاء على نسيجها في وجدان الذاكرة وفؤادها الخافق بين جوانح الضمير وعنفوان الإرادة. بحيث أصبح العزاء عين التعزية، وكلاهما تجليان لمظاهر الروح والذكرى في وحدتهما المثيرة للجنان والوجدان. وتكشف هذه الوحدة عن عمق التقاليد النبيلة. فالنبل لا ينسى الكبائر، لكنه لا يتحرق إلا لمأساة الضمير. وفي هذا يكمن السر القابع وراء تعزية الحسين الدائمة واستثارتها العميقة لأبسط مكونات الوجود العراقي منذ أن تحولت المأساة إلى الوجه

الآخر لفرحه الطاغي في التلذذ بقيم الخير والعدالة والمساواة. وقد يكون هو السبب القائم وراء قسوة الطغاة والظالمين، وقوة النبلاء والعادلين فيه.

فقد كانت مأساة الحسين الصيغة الأشد إثارة للوجدان، والأكثر نموذجية من حيث أدوارها وأداءها على مسرح الروح والتاريخ الإسلامي. وللتاريخ مآسيه وأفراحه، أي وحدة القيم والمعاني المؤثرة في الوعي والذاكرة. فالتاريخ لا يعقل خارج هذه الوحدة التي عادة ما تصنعها "عقد" المراحل وكيفية حلها. وليس مصادفة أن تكون حالة الهزيمة والانتصار هي الوحدة المتناقضة التي تبدع على قدر ما فيها من لذة ومرارة وأفراح وأتراح، شرارة التأثير المباشر وغير المباشر في تأجيج لهيب الذاكرة وحريقها.

وليس مصادفة أن تصنع هذه الحالة مثقف المواجهة المريرة والمتلذذ بشهادته للأحداث واستشهاده على انه فعل واحد هو فعل التوبة من الحرج الوجداني الذي صنعته مآسي الأمس. وهي الوحدة القائمة فيما يمكن دعوته بالوعي الفردي المعذب بكيفية حل إشكالية العقاب والثواب الأبديين بوصفهما وحدة لا يمكن فصم عراها سواء جرى النظر إليها بمعايير الجبرية أو حرية الإرادة. لكنها مواجهة تتلذذ بالفرح الطاغي مهما كان شكلها ونتائجها. وذلك لأنها عادة ما ترى في أفعالها تجسيدا لمواجهة ما يجري اعتباره خروجا على الحق. إذ ليس الفرح الطاغي في مواجهة عذابات الماضي سوى الوجه الآخر لعمق المآسي.

إن هذه الوحدة المعذبة عادة ما تذرف دموع الوجد الساخن في مجرى رؤيتها لمكونات التاريخ الحي. وحالما تبرد على وجنات الذاكرة، فإنها تصنع حبيبات الأحجار الثمينة. فالمآسي والأفراح هي الاسقطسات الكبرى لمعاناة الروح والجسد الثقافي. إنها تراب الثقافة وماءها، ونار الإبداع وهواءه. وعلى قدر ما في نسبها يجري تصنيع أواني يتحلل بعضها مع مجرى الزمن إلى مكوناته المادية الأولية، وأخرى تعيش معه بوصفها تاريخ الروح والذاكرة. وتجعل هذه العملية من كل ما فيها، بما في ذلك تعرجات ما عليها من خطوط باهتة وتثلم أطرافها أو تكسرها، مثيرا للذوق الجميل. الأمر الذي يجعلها حتى في حال "ضياعها" باقية في ذاكرة الأجيال الحية مع ما فيها من صقل وجداني وعقلي لذوق الفضيلة، أي لوحدة الجمال والجلال في ذاكرة الأفراد والجماعات والأمم.

فعندما تبكي القلوب بحرقة على أحداث الماضي، وتجعل من العزاء والتعزية "عيدها" الأكبر، فإن ذلك ليس لفرط شغفها بالبكاء بقدر ما انه الوجه الآخر لإشراق الروح المتفائل واستعداده العميق للسعادة بالأفراح. فالعزاء الكبير هو احد مظاهر الروح الكبير. والعزاء الكبير للروح هو الوجه الآخر لما فيه من قدرة واستعداد على الفرح والبقاء فيه. فهي الوحدة التي تفني العقل والضمير وتعيد إنتاجهما بأشكال مختلفة ومتنوعة. ومنها ومن خلالها وفيها وعبرها جرى تراكم هذا الكم الهائل من المواجهة والتحدي للنفس

والآخرين، أي للتاريخ الذي وضعت مقدماته الكبرى في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، حركة التوابين وشخصية المختار. ومنهما جرى وضع لبنات الصرح الإنساني الجديد لتراكم الثقافة الفعلية بوصفها خروجا على تقاليد ما أسميته بالعائلة المقدسة.

ليس المقصود بتقاليد العائلة المقدسة هنا، سوى التقاليد التي ترفع من شأن الأفراد وموقعهم الاجتماعي والسياسي والروحي استنادا إلى السلف العائلي والقبلي. ولم تكن هذه التقاليد خالية من أي اثر ايجابي، كما أنها لم تأت من فراغ. على العكس! إنها تمثلت تقاليد القبيلة والعائلة، بوصفها حلقات في سلسلة الانتماء والتراكم المادي والمعنوي. إذ لم تظهر تقاليد "العائلة المقدسة" إلا بين العائلات التي اتسم تاريخها الخاص بقدر كبير من المآثر، أي العائلات التي أصبح وجودها تاريخا ملازما لوعي الذات القومي أو الثقافي. انه اقرب ما يكون إلى رأسمال التاريخ الشخصي للأسلاف بعد رفعه إلى مصاف التقييم العقائدي واللاهوتي. وهي حالة متناقضة من حيث مكوناتها واليتها الذاتية ونتائجها المحتملة. وعموما هي الوجه المجرد للملكية الوراثية. وبالتالي تتعارض مع الحق والحقيقة والطبيعة. لكن ذلك لا يقلل من فاعليها وإمكانية تذليلها لهذا التعارض بفعل ارتقائها إلى مصاف "المقدس".

لقد نقلت حركة التوابين وشخصية المختار فكرة "القداسة" إلى الوسط الاجتماعي. وأدخلت الجمهور في معترك الحياة الكبرى، وأدرجت كل ما كان

يحلم به نبلاء الخواص وعوامهم من قيم مثلى، في فلك الأفعال والمواجهات والتضحيات. بمعنى أنها خلطت مكونات العقل والضمير، والروح والجسد، والظاهر والباطن، في حركة اجتماعية روحية مبدؤها الضمير وغايتها الحق. وعادة ما تتراكم هذه السبيكة من تحسس وتأمل حجم المأساة وطبيعتها. وليس هناك من مأساة كان بإمكانها القيام بهذه الصدمة الغائرة في أعمق أعماق النفس البشرية في العراق أكبر من تلك التي أحدثها قتل الحسين وفاجعة كربلاء. فقد جسّدت هذه الحالة في شكلها ومحتواها وأساليب تنفيذها وغايتها قمة الرذيلة. من هنا عمق الاحتجاج الممكن لتطهير النفس من بقاياها. وليس مصادفة أن تظهر حركة التوابين في العراق، أو أن تظهر في العراق حركة التوابين، بوصفها الدورة الضرورية للنفس الأخلاقية والعقل النقدي، أي للتاريخ والحق. لكنها دورة لا يمكنها النطق في الأعمال دون تلقائية الوعي الفردي بالمسئولية العامة، أي المسئولية الشخصية في مواجهة الظلم وتحديه. مع ما يترتب عليه من تأسيس لفكرة التحدي بوصفها الشرط الضروري لفكرة المثقف الحر. وقد أخذت هذه الفكرة بالتبلور في مجرى تحسس وتأمل نتائج المأساة الحسينية من عزاء معزول بالنوائح إلى دعوة جلية بالتوبة الذاتية والانتقام من القتلة.

وشكلت حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الصيغة الأولية لهذا التحول الروحي العنيف في مسار الثقافة العربية الإسلامية الأولى. فهي الحركة

الأولى لتلقائية العقل والضمير، أي الروح الباحث عن معنى الحق والحقيقة والعمل بمقاييسهما. وبغض النظر عن أن سليمان بن صرد هو من بين الصحابة الأوائل، والمؤيد الشديد لكفاح الإمام علي ضد خصومه وأعدائه، إلا أن سلوكه النوعي الجديد لم يكن محكوما بالماضي. لقد كان سلوكه محددا بحافز الحق كما هو. كما هو جلي في "سلامه" على الحسن بن علي بعبارة "يا مذل المؤمنين!" (عوضا عن السلام عليكم يا أمير المؤمنين) بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية. ولم يكن سلوكه الناقم على الحسن حبا ببقاء الخلافة في آل علي بن أبي طالب، بقدر ما كان ينبع من إحساسه الفطري ورؤيته الواقعية ونزوعه الأخلاقي للفكرة القائلة، بما سيطلق عليه لاحقا إمامة الفاضل والمفضول. بمعنى وقوفه إلى جانب أولوية الفكرة الداعية لإمامة الفاضل مهما كانت الظروف. وهي رؤية لا تحدد السياسة بسلوك الرجال، بل الرجال بحقيقة السياسة بوصفها إدارة لشئون الأمة بمعايير الحق والفضيلة. وهو انقلاب هائل في شخصية الصحابي، أي رجل الفكر والعقيدة.

فقد كان هذا التحول الذي أحدثه سليمان بن صرد في الموقف من الحسن بن علي ومعاوية خروجا تاما على فكرة وتقاليد ونفسية "العائلة المقدسة" وتقاليدها الدينية والدنيوية، ومن ثم فإننا نعثر فيها للمرة الأولى على صعود نجم المثقف المستقل والمتحرر في اختياره للأقوال والأعمال. وعندما تعرضت مواقفه المستقلة إلى الانكماش مع صعود الأموية، فان لهيبها بقى يستعر تحت

رماد الخبث المتراكم في ظل سياسة معاوية. وحالما هبت رياح يزيد فان ما أستعر تحت الرماد لم يبرد بين ليلة وضحاها. فقد انقضى عمر طويل من السكون. وقد يكون الشك في بقاء تقاليد الحسنية الباردة وجبريتها الخائفة من السلطة قد عرقل إمكانية ترتيب الأولويات في فكره التي كانت في يوم ما تتزاحم بفعل صراع دام وعنيف. لكنها بدأت بالتأجج قليلا في مجرى المواجهات الأولى التي رافقت توريث السلطة، واحتدمت بكل عنفوانها بعد مقتل الحسين بن علي.

فقد انتفض سليمان بن صرد، شأن كل ذلك الرعيل الذي أقفلت عليه الأموية الصاعدة إمكانية وحق الاشتراك في شئون الدولة والمجتمع، حالما توفرت الفرصة الأخيرة في بقايا "الحياة الدنيا" لكي يكون "للحياة الآخرة" رفعة أمام الله والنفس. إذ عادة ما تعتصر هذه الحالة فؤاد الأفراد الكبار وقت الشدائد لتضعهم أمام الامتحان الأخير بوصفه بوابة الآخرة. ومن الممكن تتبع خيال هذه الحالة في شخصيته، وهو الشيخ الكبير الذي يدعو أهل العراق والكوفة لخوض المعركة النهائية ضد الأموية. إذ نراه يدعو أهل الكوفة لإعلان توبتهم وندمهم على تقاعسهم عن نصرة الحسين في كربلاء. وقد استجاب لهذه الدعوة آنذاك ما يقارب الأربعة آلاف رجل. ورتب منهم جيشه التائب مما جرى، والنائب عن ندمه في الاستعداد للقتال. وقد كانت تلك المرة الأولى التي تتجمع فيها القوى المعارضة للسلطة تحت إمرة النفس التائبة

والقلب الندمان. بمعنى أنها المرة الأولى التي تحتكم الإرادة السياسية والفكرية إلى الروح الأخلاقي الصرف. الأمر الذي جعلها حالة نموذجية لصعود ما أسميته بمثقف الاختيار الحر، أي مثقف الجهاد المحكوم بأولوية الروح على العقيدة. وهي أولوية لا نفي فيها ولا نهي لفكرة العقيدة، بقدر ما تعني ذوبانها في فكرة الجهاد والتحدي. وليس مصادفة ألا يختبئ هو وجيشه في انتظار قدوم جحافل السلطة من الشام إلى الكوفة كما كان المعتاد وكما سيجري لاحقا، على العكس. نراه يصعد شمالا بجيش المتطوعين، أي بكتلة الأحرار المنصهرة بتوبة النفس وندم القلب للتعويض عن تقاعس الجسد في الماضي القريب. ومن الصعب الآن تحسس كمية ونوعية الهواجس والشكوك الممكنة في فعل من هذا القبيل، لكنها عادة ما تسري في قلوب الفرسان بطريقة اقرب ما تكون إلى قبول الموت بوصفه الأسلوب الأمثل لقهر إرادة الغاصب والباطل. ومن الممكن تخيل هذه الحالة في أعمق أعماق سليمان بن صرد وهو يرى بأم عينية محاربيه الشجعان أمام جحافل الجيش الأموي بمعدل أربعة إلى ثمانين[1]!! غير أنها الحالة التي كشفت بها في ذلك في مجرى خوض الحرب ونتائجها، عن أن الشيء الوحيد الذي خامر قلب سليمان بن صرد هو أسى المواجهة لا اليأس من نتائجها. لاسيما وأنها الحالة المميزة لطفح الفروسية والمروءة، التي يمكن تخيلها عندما استجمع سليمان بن صرد أربعة آلاف محارب متطوع مدفوع

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص66.

بحب الانتقام من قتلة الحسين تعبيرا عن توبة القلب والنفس والجسد مما حدث في كربلاء.

لقد وقف التوابون في منطقة عين الوردة على حدود الشام مع العراق. وانتهت المعركة بعد أيام ثلاثة رغم الجهود البطولية التي بذلها التوابون في ساحة القتال[1]. ودارت معارك ضارية استشهد فيها سليمان بن صرد ومن تبعه في قيادة المتطوعين، إلى أن قرر رفاعة بن شداد الانسحاب من المعركة واخذ البقية الباقية إلى الكوفة. وهو عمل لا يقل جرأة من الاستمرار. وفي مجرى كل ما حدث يمكن رؤية تعايش وتضافر مكونات الوجود الإنساني النبيلة من حب المواجهة الفردية والتحدي الجماعي والبطولة الروحية والفروسية الأخلاقية والمغامرة المتهورة بقوة الاستعداد للتضحية من اجل المبدأ. غير أن كل هذه الصفات تضمحل أمام اللحظة الخاطفة التي جعلت من التوبة مصدر القيم الفعلية النبيلة.

بعبارة أخرى، ليس في حركة التوابين أية أبعاد أخرى غير مغامرة الروح ونفسية التحدي وشعور المسئولية الفردية الذي أعاد مقتل الحسين بن علي صقل لمعانه بالنسبة لأعين الحائرين والمترددين. فقد أدت كيفية ونوعية مواجهته للسلطة وتحدي كل ما فيها إلى أن تصبح خاتمته بداية التاريخ الذي ختم مرحلة السكينة والهدوء المعذب. كما فجرت من جديد خزين الأفكار

[1] المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص94.

المكبوتة والشخصية المحاربة وكتلة الإيمان المتمرسة بتقاليد البطولة والفروسية والمروءة، ولكن بهيئة انقلاب جمع في ذاته وحدة الظاهر والباطن على مستوى الإرادة والقيم. وقد جسدت حركة التوابين والموت البطولي لسليمان بن صرد الصيغة التاريخية والروحية الأولية الكبرى لهذا الانقلاب. إذ قدمت في نواياها وأفعالها نموذجا جديدا لفكرة التوبة الأخلاقية والروحية. إذ لم تنزو مع النفس ولم تختل بها في ثنايا التقية والباطن، كما أنها لم تندفع بمعايير الفكرة السياسية الخالصة أو العقائد الجازمة، بل جمعت بينها بطريقة بحيث جعلت من الأبعاد السياسية تحديا للنفس ولكن من خلال تحدي السلطة، ومن ثم الاستعداد للتضحية باسم الحق، وحب الموت باسم الحياة. وقد كانت تلك تركيبة نموذجية لما يمكن دعوته بتوبة الروح والجسد والذاكرة.

لقد تجاوزت توبة التوابين من حيث مقدماتها وغاياتها ما كان مميزا لتوبة الخوارج العقائدية والسياسية. وذلك لأن مجرد رفع اسم التوبة إلى مصاف الشعار العام للحركة هو دليل بحد ذاته على نوعية وعي الذات الأخلاقي السياسي. الأمر الذي جعل منها تيار الألم والضمير. من هنا عنفوانها واستعدادها للموت دون أن يتطرق إلى هاجسها شعور الخيبة والهزيمة. على العكس! أنها أخذت تنظر إلى كل ما يواجهها على انه جزء من البلاء الروحي، مع ما يترتب عليه من شعور بالسعادة خال من همجية التعصب والغباء المبرقع بعقيدة "القتل المقدس". من هنا مأثرة البطولة والتحدي بوصفها اثر التوبة

الصادقة. وهي السلسلة الروحية التي شكلت وسائل الانتقام حلقاتها الأخلاقية والفكرية والسياسية. وبغض النظر عن أن هذه الحلقات لم تخل من دموية، لكنها بلا غدر ولا تشف ولا قتل. بل اقتصاص محكوم أولا وقبل كل شيء بالانتقام من النفس. إذ لم يكن انتقام حركة التوابين من أولئك الذين قتلوا الحسين بن علي سوى مبدأ الانتقام من الأعداء عبر اتهام النفس، باعتباره أسلوب تطهيرها العملي، الذي ارتقى للمرة الأولى في تاريخ الإسلام إلى مصاف الفكرة المجردة والمبدأ المتسامي من خلال ربط إزالة الجرم عن النفس بتقديمها قربانا لاستعادة الحق والقصاص له. من هنا دقة تصويرهم في العبارة القائلة، بأنهم "رأوا أنهم لا يغسل عنهم جرم قتل الحسين إلا قتل من قتله أو القتل فيه[1].

إن تحول فكرة الانتقام الروحي والأخلاقي إلى مبدأ وشعار الحركة السياسية هو انقلاب تاريخي أبدع على مثاله نموذجا خاصا من المثقفين، الذين مثل المختار الثقفي احد صيغه الأولية الرفيعة الخاصة في ميدان الجهاد السياسي والفكري. ومن ثم أنتج على مثال ما فيه أبعادا جديدة ادخلها في فلك الثقافة الإسلامية الناشئة وشخصية المثقف. بمعنى انه مثل التيار الجديد للمثقف الإسلامي في تمثله "لحقائق المرجعية الأبدية للروح" ومبادئها العملية في كل

[1] المصدر السابق، ج3، ص93.

من الفردانية المتسامية، ووحدة العلم والعمل، ومعاناة الهموم الكبرى للفرد والمجتمع والدولة في الأقوال والأفعال والمواقف ومن ثم في الآثار والمآثر.

فمن المعلوم أن الانتقام الروحي لا يظهر اعتباطا وعبثا أو مصادفة. وذلك لما فيه من تأزم وتشدد وتراكم وتشنج للنفس الأخلاقية. وعندما يتحول الانتقام الروحي إلى فكرة مجردة تضيء شعار الحركة السياسية وتوجهها العملي، فان ذلك مؤشر ودليل وبرهان على قوة واندفاع التراكم الكمي لطاقة الاحتجاج الاجتماعي صوب مخارجه الذاتية. ووجدت هذه المخارج في البصرة والكوفة منافذها الكبرى وميادين معاركها، وفي حركة المختار نموذجها المتكامل. وليس مصادفة أن تتحول شخصيته، رغم سرعتها الخاطفة بمعايير الزمن، إلى أسطورة كبرى[1].

---

[1] كان قبره فيما مضى مندرسا. وجرى تشييده في وقت متأخر. وتتبع أثره وأحياه محمد مهدي بحر العلوم في مجرى دراسة آثار مسجد الكوفة وقصر الإمارة القديم فيها. وقد عثر على حجارة قبره صخرة تشير إلى اسمه ولقبه (قبر الآخذ بالثار المختار). وكان مدخل قبره في البداية مجرد حجرة في زاوية المسجد الشرقية الجنوبية. لكنه اتخذ مظهره الحالي بعد أن جرى ترميمه وتشييده من جانب محسن بن الحاج عبود شلاش الخفاجي بمساعدة بعض المؤرخين المنقبين من النجف. حيث جرى إنشاء حرم واسع تم إلحاقه برواق وحرم مسلم بن عقيل، كما جعل لقبره شباكاً جديداً.

الفصل الثاني

المختار الثقفي - التاريخ والأسطورة

إن تحول شخصية المختار إلى أسطورة هو الوجه الآخر لدراما التاريخ السياسي الذي ساهم في صنعه. كما أنها الصيغة التي تعكس حدة الخلاف بين زمن السلطة وتاريخ الروح. فقد كانت تتآكل في هذا الخلاف قواعد المنطق لكنها لم تخمد وهج الخلاف بين المحاولات المتصارعة في تصويره باعتباره نموذجا للفضيلة، وأخرى نموذجا للزيغ والضلال، لا لشيء إلا لغلوه الأخلاقي في الانتقام لمقتل الحسين بن علي. وفيما بين هذين الاتجاهين المتناحرين جرى شحذ قوة الخيال والرواية بالشكل الذي أبقت عليه خارج الإطار التاريخي والواقعي لمعاناته السياسية وقوته الروحية وهزيمته العسكرية.

فالبطولة الجارفة والصعود السريع لشخصية بلا أساس "عائلي" شهير أو "سيرة مقدسة" عادة ما يجبران القوى المتصارعة في البحث عن "مؤشرات" أو اختلاقها لكي تصبح للأحداث ومآثرها قيمة ما فوق تاريخية أو إنزالها إلى الحضيض. إذ نعثر على هذه الصيغة النموذجية في محاولة رفعه إلى مصاف

الأسطورة المقدسة في التاريخ الشيعي. وتستمد هذه الصورة مقوماتها من اشتراكهما في المعنى والمعاناة، والذي عادة ما يدعمه التاريخ بحيثيات ورمزية قابلة للحشو في براهين وأدلة لا تبتعد كثيرا عن الحقيقة أو لا تتعارض مع تأويلها.

فقد ولد المختار بن أبي عبيدة بن مسعود الثقفي في السنة الأولى للهجرة. وهي ولادة في الزمن كانت تحتوي في باطنها على إمكانية التحول إلى تاريخ روحي. بمعنى إمكانية البحث في ولادته عن "غيرة إلهية" أو "هدية الإسلام المجاهد" أو ما شئنا من الاحتمالات التي يرمي بها الخيال ويستمد قدرته على تأويل كل ما يستجيب لاسمه وفعله اللاحق. لقد ولد مختارا في الزمن والاسم. بينما أتحف الخيال الشيعي اللاحق هذا الاختيار بقصة جلوسه في حضن الإمام علي عندما جاء مع أبيه إليه، ومسحه على رأسه وملاطفته بكلمات "يا كيس يا كيس"[1]. ولا غرابة في هذه الحكاية، كما أنها لا تحتوي بحد ذاتها على ما يمكنه إن يتنافى مع الواقع والأحداث. غير انه حالما نضعها ضمن سياق الزمن الواقعي لحياة الإمام علي بن أبي طالب، فإنها لا تتعدى كونها مصادفة قادرة على التحول إلى قيمة روحية في ظل ما جرى من أحداث درامية بعد موته ومقتل ابنه الحسين لاحقا. بمعنى أن هذه الحكاية الطريفة لا تخلو من إمكانية الصدق، لكنها لا تحتوي بحد ذاتها علي شيء غير إمكانية

الكشي: رجال الشيعة، ص84.

تحولها إلى طاقة التأويل الكامنة في أعماق المختار وتوظيفها ضمن سياق تكامل شخصيته السياسية والفكرية والروحية. أما الفكرة التي دفعها ابن نما الحلي إلى نهايتها اللاهوتية الجميلة عندما حّمل كلمة "كيس" أبعادا ما فوق تاريخية ورفعها إلى مصاف التنبؤ الغريب بمأثرة المختار اللاحقة بين الشيعة، فإنها لا تخلو من طرافة القرون الطويلة وطاقة الاحتجاج المتنامية في تقاليد الشيعة التي تمّثل المختار صيغتها الأشد عنفا وتطرفا في "الثأر من قتلة الحسين". والشيء نفسه يمكن قوله عن التأويل السياسي الحالي لشخصية المختار بين الحركات الشيعية الحديثة. بمعنى محاولات البحث في هذه الكلمات المنسوبة أو المتخيلة أو الواقعية عن معنى يتجاوز كلمات الرجال العظام في مجرى حياتهم اليومية مع الآخرين. كما هو الحال في التأويل الساعي للبرهنة على ما في هذه الكلمة من تنبؤ خارق لما سيظهر عليه من حنكة سياسية وآراء سديدة وبطولة لا مثيل لها وسلوك هو الأجمل من نوعه في الأخذ بثارات أهل البيت عموما والحسين خصوصا ومعاداة من اغتصب حقوقهم وتراثهم. أما في الواقع، فان الكلمة العابرة، أيا كان مصدرها، لا تصنع شخصية، بل تكامل الشخصية التاريخية هو الذي يعطي لكلمات الماضي أبعادها المعنوية.

غير أن للكلمة وقعها في الصغر والكبر على قدر ما في الشخصية من استعداد للارتقاء إلى مستواها. لكنها تبقى في نهاية المطاف جزء أو جزيئة في تراكم الشخصية، ومرحلة في التأويل المحتمل. وهو تأويل يتوقف حجمه

وتأثيره على ما في الشخصية نفسها من اثر وقيمة بالنسبة للفكرة والتاريخ السياسي. من هنا تحول كلمة "الكيس" إلى قوة روحية في "أخبار المختار" و"تاريخ الثار" والتشيع في رجاله وأصوله، كما تحولت إلى "كيسانية" و"كسائية" في محاولات التفسير أو التشويه العقائدي والمذهبي في كتب التيارات المعارضة للشيعة.

إذ عادة ما يجري ربط فرقة الكيسانية بشخصية المختار الثقفي. لكنها محاولة ركيكة من جانب التيار المعادي له، كما أنها تسير بدون وعي عند أولئك الذين اعتبروا التسمية دقيقة بحقه. من هنا محاولات البحث عن تأييد تاريخي لها من خلال ابتداع العبارة الأسطورية التي تنسب للإمام علي بن أبي طالب التي قالها عنه عندما كان صغيرا برفقه أبيه. ومهما يكن من أمر هذه المقابلة وجلوس المختار وهو صغير في حضن الإمام علي، فان التسمية لا تستقيم مع العربية، مع ما فيها من دلال لا معنى له. لكنها تخضع بدون وعي لضغط التهويل والتزييف العقائدي الذي حاول أن يجعل من حركة المختار المناهضة للأموية و"الأشراف" بعدا غريبا أجنبيا أعجميا من أتباع الموالي! فإذا كان المقصود بها كيسان آخر، من أتباع الإمام علي بن أبي طالب كما تنقل بعض المصادر التاريخية، فانه قد قتل، حسب هذه المصادر في معركة صفين. وبالتالي لا وجود لصلة الربط بينهما. أما في حالة أن يجري اعتبار كيسان هو من تشير له أخبار المختار باسم أبي عمرة، فهو مجرد احد الشخصيات المقربة والعسكرية

وقائد حرسه الشخصي. إذ لا نعثر في كل الروايات المتعلقة بالمختار إلا على أحداث قليلة، وبالأخص ما يتعلق منها بالبحث عن قتلة الحسين، وبالأخص حادثة قتل عمر بن سعد بوصفه قائد جيش الأمويين الذي قتل الحسين. وبالتالي، فان دوره كان محدودا ومحكوما بتنفيذ ما يطلبه المختار. ومن ثم، ليست الكيسانية سوى الإشارة المتحاملة على بعض الشخصيات التي انهمكت في متابعة قتلة الحسين. بمعنى أنها حركة الجسد المتشفي بنفسية الانتقام من أعدائه المجرمين. ولا علاقة لها بالفكر والفكرة. والشيء نفسه فيما يتعلق بالكسائية. بمعنى انه لا معنى للربط بينها وبين الكيسانية والمختارية، مع أنها جميعا تصب في تيار المعارضة للأموية وتختزن تجارب التشيع العراقي. فالكسائية أكثر "انغلاقا" واقترابا من فكرة فردانية الإمام. كما أنها تسير ضمن تقاليد التأسيس اللاهوتي والفلسفي لقيمة الإمام حسب تقاليد الشيعة المتأخرة نسبيا. ذلك يعني أنها الصيغة العقائدية والفلسفية اللاهوتية المتراكمة في مجرى بروز وتنظيم مفاهيم الوصاية والعصمة والعلم اللدني (الباطني) والغيبة والرجعة. وهي عملية تاريخية تبلور اغلب معالمها في مجرى قرن من الزمن، ابتدأ بمقتل الحسين عام 60 للهجرة وانتهى بموت جعفر الصادق عام 148، بعد أن مر بموشور العمل النظري والعملي لائمة بارزين مثل الإمام زين العابدين، ومحمد بن الحنفية، وأبو هاشم بن محمد بن الحنفية، والباقر، وزيد بن علي، مرورا بكافة الانتفاضات الكبرى، بدأ من المختار وانتهاء بانتفاضة عبد

الله بن معاوية الطالبي (الجعفري) مرورا بحركة الوصفاء وغيرها من الحركات.

ومهما يكن من أمر هذه القضية، فإنها تبقى في نهاية المطاف أسلوبا ومستوى للبحث عن الجذور والتأسيس لها كل بمعاييره والغايات التي يرمي إليها. غير أن التأويل حالما يصبح أسلوبا للبحث في التاريخ والمستقبل، عندها تصبح الأحداث الواقعية حلقة في سلسلة الصيرورة الروحية والكينونة المتسامية للأفعال اللاحقة. وهي صفة لا ينفك أسلوب التفكير الديني واللاهوتي عن الغزل بخيوطها. لكنه أسلوب معقول أيضا حالما نبظر إليه من زاوية تراكمه في جدل النفس المعذبة من رؤية الجريمة وهي تحتفل بانتصاراتها أمام أعين الجميع!! من هنا محاولة البحث في كل دقائق وحيثيات تاريخ المختار، باعتباره تاريخ واقعي في أحداثه، لكنها منسوجة بخيوط الوجدان اللامع من حرير الزمن الملفوف في شرنقة الكوفة المتحللة في غليان دمائها وغلوائها للحق. إذ نعثر على هذه الصيغة في رسم معالم نشوئه وحياته الأولية، عندما يجري تصوير طفولته على أنها لعبة في أيدي القدر البطولي للإسلام الأول. بمعنى الإشارة إلى موت أبيه شهيدا على شاطئ الفرات في مجرى معارك الفتح الإسلامي مع الفرس، بعد أن دهسه فيل بأقدامه. وهي معارك استخلفه فيها سبعة من أبناء ثقيف قتلوا على التوالي، كان أولهم أبنه جبر.

ولم يكن للمختار حظا في تلك المعارك لأنه كان في الثالثة عشر من العمر. غير أن المخيال الشعبي أثرى هذه الفترة بالرؤية التي تنسب إلى أم جبر، زوجة أبي عبيدة المختار كيف أنها رأت في منامها أن رجلا نزل من السماء ومعه إناء فيه شراب من الجنة فشرب منه أبو عبيدة وابنه جبر وجماعة من أهله. وبقي المختار خلف هذا الصمت السماوي كما لو انه السر القابع في هيكل الانتفاضة القادمة. وهي صيغة تروي عما لا يمكنها الرواية عنه بإسهاب. وهو أمر طبيعي. فالمختار هو سليل القبائل العربية. ولا علاقة لها بالوحي وتاريخه، وقريش ومشاغبها، وال هاشم وفضائلهم. ومن ثم نشأ طبيعيا كالحياة. من هنا ظهوره إلى جنب الحجاج بن يوسف الثقفي. وهي المفارقة التي جعلت التدوين التاريخي يقول، بان المغيرة بن شعبة الثقفي والمختار الثقفي المعاصرين أحدهما للآخر (إضافة إلى الحجاج الثقفي!) هما ابرز من أنجبتهم ثقيف. واشتركا كلاهما في الذكاء الفطري والدهاء السياسي. وإذا كان المغيرة داهية السلم والحرب والإدارة مع ما فيه من قدرة واستعداد على الخداع والكذب والمكر والنفاق كما وصفه أكثر المؤرخين، فان الأمر يختلف بصورة جذرية بالنسبة للمختار. وليس مصادفة أن يقول السيوطي عنه في (تاريخ الخلفاء)، بأنه لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يمكن الخروج من باب منها إلا بمكر واحتيال لخرج المغيرة من أبوابها كلها. لكنه خروج له مخرجه النهائي من

وجهة نظر التاريخ الأخلاقي في العراق، عندما جرى إخراجه من كل شيء بما في ذلك من تاريخ وعي الذات الروحي والسياسي العراقي بشكل خاص.

وبالمقابل جرى ملئ التاريخ العراقي ووعيه الذاتي الأخلاقي بشخصية المختار. وجرى هذا الامتلاء عبر صنع تأريخ متواز هو (أخبار المختار) و(تاريخ الثار) المرتبط بشخصيته[1]. وما وراء هذين التاريخين وبينهما تراكمت الصورة الأسطورية. بمعنى أنها استمدت كامل مكوناتها وعناصرها من تاريخه الواقعي، بعد أن جرى رفعها إلى مصاف "القدر التاريخي" للحق و"الصوت الأبدي" للعدل. ومنهما جرى نسج الصورة النموذجية للمختار. لكنها صورة

[1] هذه الصيغة ليست معزولة عن تلك التقاليد التي جرى بلورتها في مجرى قرون من الزمن شحذت حدة الوهج الوجداني في الدفاع عن شخصية المختار ورفعتها إلى مصاف التماهي الجوهري مع فكرته السياسية العملية والأخلاقية بصدد الانتقام من الأموية وقتلة الحسين. ووجدت هذه الحالة الإبداعية الفردية انعكاسها في ظهور فن من الكتابة هو فن "كتب الثأر". وضمن هذا السياق يمكن فهم بواعث وصور الصيغة الأكثر بلاغا وتأثير لمؤلف ابن نما الحلي (القرن السابع الهجري) في كتابه الشهير (شرح الثار). وهو كتاب له تقاليد عريقة يمكن رؤيتها في عدد المؤلفات التي يشير إليها الاميني، مثل الملحمة الشعرية لأحمد البحراني (الثارات)، وكتاب (حملة مختارية) لمحمّد حسين الأصفهاني، و(روضة المجاهدين) لعطاء الله بن حسام الهروي، و(سبيك النضار أو شرح حال شيخ الثار) للشيخ ميرزا محمّد علي الأوردبادي، و(قرّة العين في شرح ثارات الحسين) للشيخ علي بن الحسن العاملي، وكثير غيرها. إذ استندت هذه التقاليد إلى وقائع التاريخ بعد رفعها إلى مصاف الخيال المقدس. وذلك لان الموهوم فيها لم يكن في الواقع سوى الصيغة الأكثر تطرفا ووجدانية لوقائع التاريخ القاسية والخشنة، كما نراه على سبيل المثال في المؤلفات التي أرخت لحياة المختار كما هو الحال في كتابات أبي مخنف الأزدي (ت– 157 هجرية)، ونصر بن مزاحم العطار (ت– 212 هجرية)، وعلي بن عبد الله المدائني (ت – 215 هجرية)، وإبراهيم بن محمد الثقفي (ت– 283 هجرية)، وعبد العزيز بن يحيى الجلودي (ت– 332 هجرية)، والشيخ الصدوق ابن بابويه القمّي (ت– 381 هجرية)، ومحمّد بن الحسن الطوسي (ت– 460 هجرية)، وغيرهم.

واقعية لا زيف فيها ولا تزويق. بمعنى أنها استمدت مستقبلها من ماضيها وجمعت بينهما بالطريقة التي لا تتعارض مع مجرى وحيثيات فعلها التاريخي.

فمن المعلوم حادثة تعرضه للسجن زمن عبيد الله بن زياد بسبب اشتراكه مع مسلم بن عقيل في التحضير لقدوم الحسين بن علي إلى العراق. لكنه أفرج عنه لاحقا وجرى إمهاله بضعة أيام للخروج من الكوفة. وكان إلى جانبه في السجن كل من ميثم التمار وعبد الله بن الحارث. وفي وقت لاحق سيكون عبد الله بن الحارث واليا على البصرة زمن ولاية المختار على العراق. وهي وقائع جرى إعادة تصويرها بمعايير "استشراف المستقبل" من خلال حكايات لا تتنافى مع الواقع ومجريات التاريخ. بمعنى أنها لم تكن أكثر من أحداث التاريخ الفعلي بعد أن جرى تحويلها إلى نبوءة، بوصفها الصيغة الجميلة والمحببة للقلوب والذكريات الجليلة لفكرة القضاء والقدر. غير أن جمالها يقوم في خلوها من الجبرية الفاقعة. وذلك لأنها نتاج الخيال الشعبي، الذي لا يتلذذ بشيء خارج وجدان الحقيقة والمعاناة من اجلها بوصفها تضحية فردية أو جماعية لها عنفوانها الظاهري وسكينتها الباطنية. بعبارة أخرى، إنها قدر وقضاء الذاكرة الشعبية التي عادة ما ترفع قيمة أبطالها إلى مصاف الأعجوبة لا لفرط إعجابها بالأسطورة، بل لان حياة أبطالها عادة ما تصبح معجزة بفعل ما فيها من عزة وإقدام وتضحية والتزام بمعاني الخير. وكل ما احتوته أخبار المختار بهذا الصدد لا تخرج عن هذا المنحى حتى في أكثرها خيالا. وبالتالي فهي صورة

واقعية لكنها متسامية. والشك الوحيد المحتمل فيها يمكن أن يحوم حول بعض حيثياتها لا في مجراها العام. كما يحتمل أن تكون حقيقة كما هي، وذلك لأنها وقائع ومجريات وأحداث مرفوعة أحيانا إلى مصاف "ما سيحدث" و"ما ينبغي له أن يحدث"، وما "كان في سر القدر" و"سر الغيب" و"اللوح المحفوظ". وهي كلها مفاهيم "إسلامية" قابلة للتطويع بالطريقة التي تضفي على مسار الأحداث نسق الحلة الجميلة والهالة الجليلة. إذ تنقل لنا مختلف الروايات مضمون الحديث الذي دار بين المختار وميثم التمّار وعبد الله بن الحارث، عندما كانوا معتقلين في سجن عبيد الله ابن زياد. ولا غرابة في مضمون هذا الحوار، لانه لا شيئ فيه يتجاوز العقل والوقائع. انه يصور لنا كيف أن المختار وابن الحارث كانا يعتقدان، بان عبيد الله ابن زياد سيقتلهما لا محالة. فجعلا يستعدان للموت. غير أن الصوت الصادق لميثم التمّار كما رسمت هويته أفعاله الشخصية ومذكرات التشيع العراقي، قال لابن الحارث، بأنه سوف يخرج من سجن عبيد الله بن زياد ويحكم البصرة، كما قال للمختار، بأنه سوف يخرج ويثأر من قتلة الحسين وأنصاره، ويطأ بقدميه على وجنتي ابن زياد. وهو قول اعتمد فيه ميثم التمار على نبوءة اخبره بها الإمام علي بن أبي طالب[1].

---

[1] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج1، ص110.

مما لا شكل فيه أن المرء في السجن وقبيل الموت لا يتحدث عن الطعام والشراب. وان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يلامس إحساسه ويداعب خياله ويستثير عقله ويقلق ضميره هو أما ذكريات الماضي أو مشاريع المستقبل. والماضي ولى إلى غير رجعة، باعتباره جزء من ضمير مستتر. بينما المستقبل هو حياة أو موت. وكلاهما تأمل ورغبة وفعل. وبالتالي ليس خيال الصورة المرسومة أعلاه عما دار بينهم من حديث أو غيره سوى إحدى الصور النموذجية للخيال المبدع حالما يجعل من المستقبل منارا للأمل، ومن الماضي أسطورة قابلة للتطبيق في أفعال الأجيال الحاضرة والقادمة. إذ نرى هذه الصورة أيضا فيما تنقله الاخبار أو تضيفه أو تدققه مما ورد أعلاه. إذ نعثر في رواية أخرى تقول، بأنه عندما كان المختار وميثم التمّار وعبد الله بن الحارث في السجن، فان عبد الله أراد إزالة الشعر من بدنه تحسبا لمقتله من جانب عبيد الله بن زياد. عندها قال له المختار "لا يقتلك ولا يقتلني ولا يأتي عليك إلا القليل فتلي البصرة". وهو حوار كان ميثم التمّار يستمع إليه. عندها أضاف عبارة يخاطب بها المختار "وأنت تخرج ثائراً بدم الحسين فتقتل هذا الذي يريد قتلنا وتطأ بقدميك على وجنتيه"[1]. ذلك يعني إننا نقف أمام نفس مضمون الصورة القائلة، بخلاصه من السجن واستعداده للقتال اللاحق "ثأرا للحسين". وهي حادثة تاريخية واقعية، لكنها ترتقي إلى مصاف الحدس

[1] المصدر السابق.

المتسامي عندما تصبح جزء من تأسيس الأبعاد الأسطورية الضرورية للأبطال التاريخيين. فالأساطير تبدأ بسرد الأحداث لتنتهي بتأسيسها الذاتي من جانب البطل. ونعثر على هذه الحالة في الحكاية الجميلة الإضافية التي تروي كيف أن المختار التقى مرة احد المقربين له (معبد) فقال له، أن الرواة يذكرون، بأنه سوف يظهر رجلا من أهل ثقيف يقتل الجبارين وينصر المظلومين ويأخذ بثأر المستضعفين. واغلب صفاته تتشابه مع صفاتي، باستثناء صفتين، العمر والبصر. إذ ذكروا بأنه شاب وأنا في الستين، وانه ضعيف البصر وأنا أبصر من عقاب! عندها رد عليه معبد، بان الستين والسبعين سنة من عمرنا يعادل عمر الشباب عندهم، أما البصر فمن يدري؟ فهو عرضة للتغير والضعف. عندها أجابه المختار "عسى أن يكون ذلك إن شاء الله". ولا تخلو هذه الحكاية من الطرافة، لكنها اقرب إلى أحاديث السمر ورغبات الأطفال وافتراء الجدل، شأن كل تلك "الأحاديث النبوية" والحكايات والروايات التي طفحت بها التقاليد "السنيّة" المأجورة من ألفها إلى ياءها ومحكومة بمزاج السلطة ومرتزقتها من أهل الرواية والقصاصين.

إذ نعثر على هذه الحالة في مناقضة الروايات المذكورة أعلاه ولكن من خلال وضع أحاديث نبوية، أي تصنيع أحاديث مزيفة ونسبها إلى النبي!! وهو تصنيع اشتركت فيه آنذاك السلطة الأموية والسلطة الزبيرية. لقد اشتركا، رغم عداءهما الدموي، بحب السلطة، وانتقامهما من أية حركة شعبية قادرة على

انتزاع السلطة من هيمنة العائلة التقليدية. وهي الحركة التي أكثر من جسدها آنذاك المختار الثقفي. من هنا جرى توجيه الضربة الإيديولوجية الكبرى ضمن معايير الذوق الإسلامي آنذاك، ألا وهي اتهامه بالنبوة! وهو اتهام لا غبار على تصنيعه من السلطة الأموية والزبيرية. فالأول، وهو أموي المنشأ، جرى وضعه على لسان التابعي رفاعة بن شداد. وجرى تصنيع الحكاية القائلة عن كيفية دخوله يوما على المختار الثقفي، فخاطبه الأخير "جئتني والله، ولقد قام جبريل عن هذا الكرسي!!". عندها أراد رفاعة أن يهوي عليه بالسيف ليقتله، لكنه تذكر حديثا للنبي محمد يقول "إذا اطمأن الرجل إلى الرجل، ثم قتله بعدما اطمأن إليه؛ نُصب له يوم القيامة لواءُ غدر". عندها كف عن القتل![1]. ولا تخلو هذه الرواية من وضع أيديولوجي محنك يجعل من اتهامه ومحاولة قتله فعلا نابعا من رجل تقي ورع من بين أصحابه!! أما الحديث الثاني، فهو زبيري المنشأ، وضع على لسان أسماء بنت أبي بكر. وله مداخل ونهايات متباينة لكنه يشترك في الصيغة الباطنية، من خلال التشديد على وجود اثنين من أهل ثقيف احدهما كذاب والآخر ظالم. وهي صيغة يمكن الاكتفاء بما هو وارد عنها فيما ترويه بعض الروايات من أنها حالما دخلت على الحجاج

(1) يمكننا العثور على هذا الحديث الجميل المعنى بذاته، القبيح في توظيفه، في كثرة من الكتب المجمعة للأحاديث كما هو الحال في كتاب المستدرك للحاكم (ج4، ص394) وابن ماجه في الحديث رقم (2688)، والطيالسي في (المسند) الحديث رقم (1286). وهي "أحاديث" متأخرة من حيث المعنى والمضمون، لكنها تحتوي على تراكم العداء التقليدي تجاه المختار، بوصفه النتيجة الملازمة لضمور فكرة الحرية وقيم البطولة الإنسانية في مواجهة الظلم والاستبداد، والاستعداد للتضحية من اجل المبادئ المتسامية.

أو طالبته بدفن ابنها بعد صلبه قائلة "إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيرا! فأما الكذاب فرأيناه! وأما المبير فلا أخالك إلا إياه!". وهنا أيضا نقف أمام مفارقة غريبة، وهي وجود حديث كاذب في (صحيح) مسلم! وقال عنه النووي في شرحه وتعليقه على "الحديث" ما يلي: المبير هو المهلك. والمقصود بالكذاب المختارَ بنَ أبي عبيدة الثقفي. ثم أضاف منه عبارة "كان شديد الكذب، ومن أقبحه ادعى أن جبريل يأتيه. واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيدة، وبالمبير الحجاج بن يوسف". وهو اتهام سخيف وضيق، لكنه يستجيب لذوق "العلماء"، أي أولئك الذين لا يتعدى "علمهم" جمع الأحاديث وروايتها بإسنادها، أي اقرب ما يكون إلى اسطوانات اليوم! وفي نفس الوقت يعبّر عن اضمحلال الرؤية العقلية والإنسانية في تقاليد التقييم والرواية التي أخذت تقترب أكثر فأكثر من جمع الشتائم والتلذذ بحكايتها بوصفها تاريخا! لكنه مع ذلك يبقى "حديثا" بين أولئك الذين كانوا يطلبون "العلم" الذي كان يطلبه عروة بن الزبير. وبغض النظر عن ابتعاده المباشر عن الصراع السياسي الذي خاضه إخوانه (عبد الله ومصعب)، فانه لم يكن منعزلا عن مزاجهما العام في بقاء العداء الدفين للتيار العلوي، رغم الالتقاء المؤقت بينه وبين حركة المختار في مجرى الصراع ضد الأموية. ومهما يكن من أمر توثيق "الأحاديث النبوية" المتعلقة بنبوة المختار الكاذبة، إلا أنها تصب ضمن تيار الاتهام العقائدي والاستعداد للكذب من اجله، بما في ذلك

من خلال إضفاء "هالة المقدس" عليه عبر إرجاعه إلى النبي محمد!! وقد كان التيار السلطوي الاموي أكثر من تمثّل ومّثل هذه الصفة. فقد أسس لنفسه منافذ إلى فكرة السنّة وتقاليدها الخربة في هذا المجال. ومن الممكن العثور على هذه الصيغة في إحدى الصور النموذجية عند ابن حجر. إذ نراه يرسم لنا شخصية المختار بالشكل التالي: المختار بن أبي عبيدة بن مسعود الثقفي. يكنى أبا إسحاق. ولم يكن بالمختار. كان أبوه من جلة الصحابة. ولد المختار عام الهجرة. وليست له صحبة ولا رؤية. وأخباره غير مرضية. يقال، إنه كان في أول أمره خارجيا ثم صار زيديا ثم صار رافضيا"[1]. إننا نقف هنا أمام صيغة نموذجية تجمع بين اليقين الجازم عند الاتهام والاحتمال حالما يتعلق بتاريخ المرء! انه ليس مختارا وليس له صحبة ولا رؤية وأخباره غير مرضية. لكنه يحتمل تغير وتبدل مواقفه! إذ تعكس هذه العبارة مضمون ونموذج تقاليد الأموية (ولاحقا العباسية) العريقة في تشويه الخصوم والمعارضة. بمعنى إظهار الخصم مجرد كتلة من الرذيلة في كل شيء. أما في الواقع، فإنها ليست إلا الكتلة المقلوبة، بمعنى كتلة الرذيلة المميزة للسلطة (الأموية في الحالة المعنية) وتسرب تقاليدها إلى المدارس السنّية مع مرور الزمن لاعتبارات مذهبية وعقائدية. أما بدايتها فقد كانت سياسية الحافز والغاية.

[1] ابن حجر: الإصابة، ج6، ص351.

بعبارة أخرى، إن الصيغ "السنّية" المشوهة لحقيقة المختار وحركته السياسية والروحية عادة ما تعتمد التشويه المذهبي والعقائدي، ولا علاقة لها بالتاريخ الواقعي. أنها تنطلق من أحاديث مزيفة وتستند إليها. وفي حصيلتها ليست أكثر من صيغ مختلفة لما يمكن دعوته باحتراف الرؤية العقائدية – الأيديولوجية. وقد يكون اتهامه بادعاء النبوة، الذي لأجله قتله مصعب بن الزبير من بين أكثرها وضوحا. أما في الواقع، فان مصعب كان يقتل لأنه أراد بذلك أن تتطابق أفعاله مع لقبه الجديد الذي صرح به حالما دخل البصرة، حيث أطلق على نفسه لقب الجزار!! وذلك لاعتبارات سياسية. بينما كان المختار العثرة الكبرى أمام بسط هيمنة أخيه عبد الله بن الزبير في العراق.

إن الأحاديث السنّية المتعلق برجال الشيعة هي في اغلبها من صنع السلطة الأموية في بداية الأمر والسلطات اللاحقة، كما أن اغلب الصور الخرافية عن رجال الشيعة بين الشيعة هو نتاج الرؤية الشعبية. وهو فرق جوهري من حيث المقدمة والغاية. فالجمهور لا يريد لأبطاله أن تموت، والسلطات لا تريد لمعارضيها أن تحيا في ذاكرة الأمم. ومن الممكن رؤية هذه الحالة في جميع الحكايات والأساطير والخرافات والقصص الشعبية الجميلة، التي تصنع في حالات عديدة نفسية الأمم وتراثها الروحي والأخلاقي العميق. أما في العراق، فإنها تقاليد لا تنفصل عن تراث الشيعة بوصفه تراث

الانتماء إلى فكرة البطولة الإنسانية الرفيعة وانتظار زمن رجوعها في شخصيات وبطولات جديدة مع كل ظهور للهلال واستكماله في قمر مثير وبدر منير!

الفصل الثالث

المختار – اختيار التاريخ السياسي!



إن تحليل شخصية المختار التاريخية والروحية يكشف، بما في ذلك من خلال الرؤية المتعارضة والمتضادة عنه بين القوى المتحاربة، عن أنه احد التجليات النموذجية للروح الشعبي المجاهد ضد الظلم والطغيان. وهو السبب القائم وراء كراهية السلطات له وحب الجمهور إياه، وتشويه الدعاية الرسمية (السنّية) وتعظيم الوجدان الشيعي المعذب بويلات الاستبداد والانتهاك الفض لمبادئ الإسلام الحقيقية.

إن المقصود بالسّنة هنا التيار التقليدي الذي تمثل تصوراته ومواقفه وتقييمه وأحكامه لابتزاز السلطة وخضوعه للأفكار والقيم المذهبية المترعرعة بنفسية العداء الأعمى للتشيع. وفي الأغلب لا تخلو المدارس السنّية عن مستوى معين من هذا الخليط الفج. لكنها ظاهرة وضعت الأموية أسسها ومقدماتها، وأنتجت مع مرور الزمن "علماء السوء"، بوصفها الظاهرة الواسعة الانتشار بين رجال الدين بغض النظر عن مذاهبهم، لكنها الأكثر تجذرا بين "أهل السّنة والجماعة". إذ لا يحتوي هذا التيار من حيث الجوهر على سنّة نبوية، بل على تمسك جامد بمفاهيم الإسلام بعد اقتلاعها من فكرة الوحي الروحية

وواقعها التاريخي. ومن ثم ليست السّنة في الواقع سوى النموذج الفكري العملي للتقليد الفج. من هنا استعدادها للوقوف ضد كل شكل من أشكال الحرية والاختلاف. وهو السبب القائم وراء معارضتها لكل تيار تجديدي ومناوئ للسلطة على امتداد تاريخه. إذ لم نعثر ولن نعثر على تقييم ايجابي بحق أية حركة أو شخصية واجهت السلطة والسلطان على امتداد تاريخ الإسلام. مما جعل منها قوة تقف على الدوام إلى جانب السلطة، بحيث أصبحت مع مرور الزمن أداة العبودية المقننة بأحكام الفقه الخارج على حقيقة الرؤية الإسلامية. ووجد ذلك انعكاسه في المواقف المعارضة لفكرة الانتفاض والثورة ضد السلطة، وتقديس العبودية بعد تغليفه بغشاء الحديث النبوي، القائل بضرورة "الصلاة وراء الإمام برا كان أم فاجرا"!! مع أنه حديث مضاد لحقيقة الفعل المحمدي التاريخي وشخصيته الفعلية والمثالية. كما انه التيار الذي حارب على امتداد التاريخ الإسلامي كل شخصياته الإبداعية الحرة. لهذا لم ينتج مفكرا ولا فقيها ولا شاعرا حرا كبيرا. وكل ما كان بحوزته هو شرّاح ونقلة ورواة لأحاديث وروايات وأخبار اغلبها كاذب وموضوع ومزيف. و"العلم" هو أخبار لا طائل في الأغلب تحتها. لكنها ثقيلة على العقل والضمير، وثقلها أكثر تخريبا بالنسبة للتاريخ. لقد كان وما يزال تيار "السنّة" أحد مصادر وأدوات الانحطاط المادي والمعنوي للعالم العربي والإسلامي.

أما في العراق، فان التيار السنّي هو تيار السلطة الأموية وتقاليدها من العبودية للسلطة والتجريم والتحريم والقتل المجاني والمذهبية الضيقة.

من هنا تضاد الرؤية بين تصورات وأحكام جمهور لا يريد لأبطاله أن تموت، وسلطات لا تريد لمعارضيها أن تحيا في ذاكرة الأجيال. غير أن التاريخ يبرهن دوما، مع ما في هذه العبارة من مفارقة، على أن الأبطال يزدادون تألقا مع مرور الزمن، ولا تؤدي كل محاولة لدفنهم في أعمق أعماق الأرض إلا على حفر ذاكرتهم بقوة اكبر في أعمق أعماق العقل والوجدان. بل حتى قبورهم المجهولة، تتحول إلى مزار وأماكن "مقدسة"، لان حقيقة المكان على قدر صاحبه، ومكانته التاريخية على قدر ما فيه من تاريخ للحق والحقيقة. والقبور للأموات، والمزار للأحياء، لأنهما كيانات مختلفة بالنسبة للوعي والذاكرة. من هنا كان بالإمكان كتابة كل الصيغ المحتملة لتشويه صورة المختار، إلا أن تاريخه يزداد مع مرور الزمن وضوحا وجلاء. وهو أمر طبيعي، لأنه كان يمثل في نزوعه الجوهري حقيقة الطبيعة، أي دعم فكرة الحياة وانبساط أغصانها الناشئة على متانة جذعها المغروس في تربته ومناخه. وهي الصورة الأدبية التي يمكن رؤية مثالها التاريخي والواقعي على حياة المختار. بمعنى الولادة في الجزيرة والموت في العراق. كما لو انه يستعيد تاريخ الإمام علي وابنه الحسين، بوصفها الحلقات التي أراد المختار دمجها فيما سعى إليه وفي شخصه. وهو فعل تاريخي نموذجي بالنسبة لما ادعوه بالخروج على تقاليد العائلة المقدسة.

فمن المعلوم، أن المختار ابن أبي عبيدة الثقفي قد ولد في مدينة الطائف في السنة الأولى للهجرة. ويمكن رفع هذه المصادفة إلى مصاف التوافق "الإلهي"، كما يمكن رفعها إلى مصاف "الإشارة" الخفية لسر القدر! لكنه تأويل عادة ما كان يداعب الأشخاص ووعيهم الفردي آنذاك، وذلك بسبب ارتباطه بمنظومة القيم التي تجعل من "الإرادة الإلهية" و"العلم الإلهي" مكونات فاعلة في مصائر الأفراد. مع انه التأويل الذي لا تخلو منه المعاصرة أيضا، خصوصا عندما يمكن توظيفه بمعايير الإيديولوجية السياسية المفتعلة.

ولكن حالما نضع هذه الاحتمالات ضمن مسار التاريخ الفعلي، فان القضية تبدو بسيطة للغاية. فالناس تولد في الزمن. لكنه جلاء لا يخلو من "سر" الولادة فيه. وحقيقة الأفعال اللاحقة وخاتمة المرء هي التي تعطي لهذه الأمور الجلية صفة الأسرار الخفية، ولتلك الأسرار الخفية صفة الأمور الجلية. وتجبرنا هذه المفارقة على إعادة النظر فيه مع كل انعطافة حادة في التاريخ والثقافة. لكنها أولا وقبل كل شيء مفارقة الشخصية التاريخية الكبرى. إذ تجعله هذه المفارقة موضوعا جوهريا للبحث تلتف حول أفلاكه مختلف الشخصيات التي حكمت وجود الأجساد. بعبارة أخرى، إن كل الأفراد من خلفاء وولاة وقادة جيوش وساسة ممن كانت أجساد البشر رهن إشاراتهم، تبقى مكونات جزئية وطارئة وعابرة وصغيرة ومرمية على أطراف مساره الشخصي، أو مجرد أعواد ثقاب فيما أشعله من حريق هائل في وجدان الأمة

وضميرها الأخلاقي والسياسي، أو في أحسن الأحوال مجرد أقلام وحبر وورق لخط مشروعه الروحي.

ذلك يعني، إن كل من عارض المختار وساهم في مقتله، كان مجرد أجساد ميتة أو أشباح عابرة. وبقي المختار رغم كل عثرات الزمن عنصرا جوهريا في تاريخ الثقافة الإسلامية بوصفه روحا مجاهدا والتزاما فرديا. لكنه روح تاريخي، أي متراكم في مجرى صراع العصر وقواه المتحاربة وصيرورة الدولة الإمبراطورية وتناقضاتها الحادة. إذ لا تعني ولادته في السنة الأولى للهجرة، سوى عيشه واحتمال تكونه في ظل ظروف جديدة وقيم نوعية تلازمها لا علاقة لها بجاهلية الماضي وقواعد عيشها المحكومة بالزمن البارد والدهر الأبدي.

فقد صنع الانتقال من الدهر الجاهلي إلى التاريخ الإسلامي، ومن قيم القبيلة إلى ثقافة الإسلام مقدمات عالم جديد متنوع الاحتمالات. من هنا قيمة تلك الأحداث الصغيرة في صيرورته الشخصية مثل ولادته في السنة الأولى للهجرة وجلوسه في حضن الإمام علي وهو صغير عندما حضر مع أبيه، ومساهمة والده في الفتوحات الإسلامية وقيادته لبعض منها، واستشهاده في موقعة الجسر وكذلك استشهاد اخو جبر. أنها ومضات خاطفة بمعايير التاريخ عميقة بمعايير الشخصية. وذلك لأنها كانت تحتوي في أعماقها على احتمالات تصب في صيرورته الروحية، أي في بناء عالم الأرواح فيه.

وليس مصادفة فيما يبدو أن ينحاز المختار في مواقفه الخاصة والمتميزة والجريئة في مجرى صراع الأشباح والأرواح إلى جانب الروح. فهو اختيار عادة ما يتسم بقدر من المعاناة الهائلة. وذلك لان الروح تضحية دائمة على قدر ما في الشخصية من تراكم لمكوناته، التي يمكننا العثور على كثير منها في المؤلفات التي تتبعت أخباره. ففيها نعرف كيف انه واجه للمرة الأولى وهو ابن ثلاث عشرة سنة قتالا شرسا مع أبيه في إحدى الوقائع. وكيف كان يسعى للقتال فيمنعه عمه سعد بن مسعود.

لقد تراكمت هذه الصفة في مجرى صيرورته الشخصية بحيث جعلت منه رجلا شجاعا مقداما، سخيا كريما، فارسا محنكا، حكيما في الرؤية، واقعيا في العمل، نبيلا في الهمة، صادقا في الوسيلة والغاية. وسوف تبرز هذه الصفات بوضوح في تاريخه السياسي وجهاده الفكري[1]. وضمن هذا السياق يمكن الاتفاق مع التقييم الذي وضعه الأميني عنه في (أعيان الشيعة) عندما اعتبره "في الطليعة من رجالات الدين والهدى والإخلاص". من ثم نظر إلى حركته السياسية وانتفاضته بعبارة "النهضة الكريمة" التي "لم تكن إلا لإقامة العدل باستئصال الملحدين واجتياح الظلم الأموي". وهو تقييم دقيق للغاية. بمعنى انه وجد في مواقفه السياسية وآراءه انتفاضا أصيلا محكوما بفكرة العدل ضد

---

[1] إن أولى الكتابات التي حاولت تتبع إخباره، تعود إلى ابن يحيى الأزدي (ت – 157 هجرية). ويندرج هذا الكتاب ضمن تقاليد (اخذ الثار) لكنه مؤشر على بداية التدوين الشخصي لحياته. ذلك يعني أن الكتابة عنه بدأت بعد موته بعقود قليلة. مما يجعل منها مادة وثائقية دقيقة، خصوصا وأنها توافق في اغلبها ما هو مدون في كتب التاريخ الإسلامي العام لتلك المرحلة.

الحاد الأموية وظلمها، أي ضد خروجها على مضمون العدالة والحق. وبالتالي ليس في آرائه ومواقفه شيئا مما نسب إليه مما دعاه الأميني "بالقذائف والطامات" التي "لا مقبل لها من مستوى الحق والصدق". من هنا ترحم عليه الأئمة الهداة كالسّجاد، والباقر، والصادق وغيرهم. كما انه لم يزل مشكوراً عند أهل البيت هو وأعماله[1]. ويتصف هذا التقييم بقدر كبير من الواقعية والصدق، رغم كونه لا يخلو من شعور الانتماء المذهبي. لكنه شعور نبيل لأنه محكوم بفكرة العدل والعدالة. بمعنى أن ما يميزه هو الانتماء لمذهب الفكرة القائلة بضرورة العدل والحق والعمل من اجلها، بوصفه المضمون التاريخي والروحي الذي بلور شخصية المختار السياسية وموقعها في الذاكرة والوجدان.

مما لاشك فيه، أن الشخصيات الكبرى والمؤثرة في التاريخ السياسي والروحي لا تظهر عبثا أو اعتباطا. بمعنى أن وراءها على الدوام أسباب هي عين مكوناتها. وفي الحالة المعنية ليست حياة المختار المجهولة قبل صعود نجمه إلى مستوى العامل والمقاتل ورجل الفكر والناطق باسم أهل البيت العلوي، سوى الوجه الآخر للأبعاد الدفينة والمجهولة في حياته السابقة. فالشخصيات الكبرى لا تظهر اعتباطا، كما أنها لا تستطيع أن تكون كبيرة بمعايير التاريخ والواقع دون احتوائها على قدر ضروري من الكبر في أعماقها بحيث يؤهلها

---

[1] الأميني: أعيان الشيعة، الجزء 2، ص343.

لتزعم الحركات أو التعبير عن هموم الجمهور والأمة. ومن ثم تسهم في وضع لبنتها الخاصة في صرح التاريخ الواقعي أو المثالي. أما المقياس الحقيقي لهذه العملية المثيرة فهو قدرة الشخصية على إعادة إنتاج الوعي الاجتماعي والروحي وتنشيط مكونات وعي الذات أو إعادة رسمها في الأقوال والأفعال. وقد رافقت هذه الصفات وما تزال ترافق حياة المختار في الوعي الاجتماعي والسياسي والروحي العراقي. وليس بإمكان هذه الصفات الفعل دون أن يكون المختار نفسه بمستوى الأفكار والقيم التي سعى لتجسيدها في كفاحه وصراعه وحياته وموته، أي كل ما جعل منه مأثرة تاريخية وروحية ما زالت تهذب العقل وتلهب الضمير.

ذلك يعني أن حياته ما قبل "ظهوره السياسي" على حلبة الأحداث التاريخية الجسيمة، لم تكن مفاجئة بذاتها، بقدر ما أنها كانت نتاج الخميرة المتراكمة في عقود الاستبداد الأموي الذي جسده معاوية بن أبي سفيان بطريقة نموذجية. فقد اقفل عهد معاوية في الحكم الباب أمام النخبة السياسية الناشئة في ظل العقود الأربعة الأولى، بوصفها زمن "النبوة الإمبراطورية" للخلافة. فقد تراكمت في هذا الزمن كمية هائلة من شحنة الفكر والأخلاق والرؤية السياسية. ومن ثم لم يفعل الضغط والإكراه الأموي إلا على تحويل مسارها صوب الباطن، باعتباره السر الكامن وراء ظهور الحركات الباطنية في العراق.

فقد تحول العراق إلى مكان تجريب الوسائل القبيحة للظلم والقهر الأموي. مما أدى إلى تحييد أو ابتعاد أو عزل جيل الأربعينيات، أي كل أولئك الذين تراكمت شخصيتهم وفردانيتهم ضمن مسار الإسلام الأول وخلافة الراشدين، عن السياسة والنشاط السياسي وإشكاليات الدولة وإدارة شئونها[1]. وهو السبب الكامن وراء ظهور تلك الكوكبة اللامعة من المثقفين الذي مزجوا في شخصياتهم وحدة الفكرة والجهاد من اجلها، كما جسّدها الحسين بن علي. وفيها وبأثرها ظهرت رؤوس جديدة أشركت القوى الاجتماعية في صراع سياسي وفكري هائل، لعل أكثر بروزا وفاعلية آنذاك هي

[1] إننا نقف أمام نفس الحالة التي ميزت تاريخ العراق الحديث بعد صعود الصدامية. وهو سر ظهور الحركات السياسية الحديثة وطابعها الدموي بما في ذلك نفسية الانتقام والتشفي والأخذ بالثار. فقد كانت الصدامية نموذجا "عصريا" للأموية فيما يتعلق بفكرة الدولة والسياسة والأمة والحقوق، بمعنى الخروج على مبادئ وقواعد الحق والشرعية. وهي نتيجة مترتبة على سيادة الراديكالية بشكل عام والهامشية بشكل خاص. وهو الفرق الكبير الوحيد بينهما. لكنه فرق جوهري أدى إلى فارق أدوارهما بالنسبة للعراق. فقد كان معاوية باني الإمبراطورية، بينما كان صدام هدام العراق. غير أن الصدامية امتثلت تقاليد الأموية المتعلقة بالمعارضة. بمعنى أنها مارست نفس أساليبها العامة والخاصة. ولعل أشدها قسوة هو تفريقها وتشتيتها وتهجيرها للمعارضة، بحيث جعلت منها قوة متراكمة بمعايير الحقد والكراهية والأخذ بالثأر، بوصفها الصفة المميزة لكل معارضة مهجرة. وقد دفع الأمويون ثمنها الفظيع لاحقا، كما دفع وسيدفع الصداميون ثمنها طويلا. وفي كلتا الحالتين ليس الثأر سوى رد الفعل الطبيعي على ما جرى اقترافه من جريمة تاريخية بحق القوى العراقية. وفي كلتا الحالتين كان نصيب "الشيعة" هو هو نفسه، تشريده من قوى غريبة على العراق (سابقا الأموية الشامية ولاحقا الاطرافية الصحراوية). كلاهما ينتميان في الواقع إلى تراث واحد- حب المال والثروة والسلطة. وغياب تام وشامل لفكرة القانون والحق والعدالة والنزعة الإنسانية. وفي كلتا الحالتين يجري إعادة بناء التاريخ العراقي بطريقة نوعية تستجيب إلى ما فيه من نزوع نحو الكونية والانفتاح الإنساني (العباسية فيما مضى، واحتمالات البدائل المناسبة في الظروف الحالية)

شخصية المختار الثقفي وعبد الله بن الزبير. من هنا اشتراكهما في الصراع ضد الحكم الأموي واختلافهما وتنازعهما وتناحرهما في الغاية[1].

فقد أدت محاولات معاوية إدخال فكرة التوريث وجعلها أسلوبا لنقل السلطة إلى استثارة الصراع الاجتماعي والفكري في الثقافة الإسلامية الناشئة، للدرجة التي حكمت وتحكم لحد الآن بواعث خلافاته الداخلية والمذهبية. ومن الممكن توقع حدتها الدفينة وشدتها العلنية حالما جرى "شرعنتها" للمرة الأولى بعد موت معاوية. أما ردود الفعل السياسية المباشرة فقد أدت إلى استشهاد الحسين بن علي. وهي خاتمة فاجعة من حيث معناها الروحي والسياسي، والتي استثارت لاحقا ما أسميته بالخميرة المتراكمة في عقود الاستبداد الأموي.

وقد كان المختار هو احد هؤلاء المثقفين الكبار الذين تراكمت شخصيتهم الأولى في ظل الانتصار التاريخي للفكرة الجديدة (الإسلام) وتأسيس إمبراطوريتها السياسية والروحية (الخلافة). بمعنى انه بلغ الأربعين

---

[1] إن التجربة السياسية العراقية الحالية تضع من حيث تحليل آفاقها الممكنة مهمة الاستفادة من تجربة الصراع بين الحركة المختارية والزبيرية، على الأقل من حيث الصيغة المجردة. فقد عجزت الأموية وفشلت بل تعرضت للهزيمة في مواجهاتها الأولى معهما. لهذا انسحبت ودعمت الاقتتال بينهما. وبعدها أنقّضت على الاثنين. إن الأموية القديمة هي الصدامية وبقاياها. والحل يفترض الائتلاف الفعلي ولكن بمعايير الوطنية العراقية والقومية العربية وليس المذهبية والطائفية. كما أن الأولوية هنا تفترض رفض الطائفية السياسية، بوصفها طائفية سلطة. والقضاء الفعلي عليها يفترض تأسيس البديل الواقعي من خلال منظومة الحق والشرعية العامة، أي تأسيس التيار الدنيوي العقلاني الإنساني الشرعي التحرري الوطني العراقي، بوصفه ممثل هوية المستقبل العراقي.

في ظل نمو متراكم لجوهرية فكرة العدل والحق والجماعة والأمة. أما البقية الباقية فقد تراكمت في ظل استبداد عنيف ظاهر ومستتر. وبالتالي، فان الصيرورة السياسية الأخيرة للمختار هي وحدة الظاهر والباطن السياسية الروحية في استلهامها لفكرة الحق والعدل الإسلامية، ومحاولة تحقيقها السياسي. ووجدت هذه الوحدة المتحولة منفذها بعد الخروج الأول للحسين في الانتفاض ضد الحكم الأموي وفكرة التوريث بوصفها مخالفة وخروجا على فكرة الشورى ومبادئ الإسلام الكبرى. وليس مصادفة أن يكون بيت المختار(دار سلام بن المسيّب) المكان أو المحطة الكبيرة التي نزل فيها رسول الحسين إلى العراق مسلم بن عقيل[1]. مع أنه نزول ليس له علاقة شخصية بين الاثنين بسبب اختلاف العمر ومكان العيش والتربية المباشرة.

فقد شارف المختار آنذاك على الستين، ومسلم على الأربعين. كما أن المختار عراقي السكن ومسلم بن عقيل حجازي. ولم يكن المختار أكثر رفعة أو قربا لآل الحسين مقارنة بشخصيات "شيعية" كثيرة وكبيرة لها تاريخها السياسي والروحي والاجتماعي العام (العراقي) والخاص (القبلي). لكنه نزول يعكس من حيث الجوهر طبيعة العلاقة السياسية الروحية بين الحسين بن علي ورسوله مسلم وبين المختار. كما أنه نزول يشير بدوره إلى إمكانية الإقرار بان هناك مراسلة قد جرت بينهما قبل ذلك.

---

[1]الطبرسي: أعلام الورى، ص132، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص86، أبن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص152.

إن الفكرة القائلة، بان المختار لم يكن من بين أولئك الذين راسلوا الحسين ودعوه للحضور إلى العراق لا تتمتع بقدر كبير من الصحة والمصداقية. طبعا أنها تبقى احتمال وارد، لكنها اقرب ما تكون إلى فرضية أخلاقية تعمل ضمن دعاية التنزيه المتسامي لشخصيته. مع أن كل ما فيه يرتقي إلى هذا المستوى. غير أن إظهار صفته الشخصية الاجتماعية والأخلاقية الاعتبارية دون أي نزوع سياسي أو مشاركة علنية ومستترة لا تتجاوب مع تاريخه السياسي اللاحق. إضافة إلى ما فيها من محاولة لإظهار نزوعه المجرد والخالص في الثأر للحسين وأهله. لكن الثأر لا يتعارض مع إمكانية اشتراكه الأول وهزيمة المشروع الحسيني. بل على العكس. انه يقف إلى جانبه. وقد يكون هذا أيضا احد الأسباب التي ميزت السياسة العنيفة لممارسة الثأر. بحيث ارتبط ذلك ليس باسمه فقط، بل وببرنامجه السياسي وفكرته الجوهرية العملية و"مأثرته" في المزاج الشعبي بل وحتى بظهور فن الكتابة التاريخية – "كتب الثأر". من هنا يمكننا القول، بأنه لا يعقل الإقبال على دار المختار والنزول فيها على أنها مجرد مصادفة، لاسيما وان الكوفة كانت مليئة برجال التيار العلوي.

فمن الناحية الشكلية، لا توجد لدينا معلومات كبيرة عن حيثيات حياة المختار بعد صعود معاوية إلى السلطة. والأخبار الواردة عنه قليلة ويشير أغلبها إلى واقع ابتعاده عن العمل السياسي المباشر. من هنا انصرافه عنها وعن المعارضة العلنية لمعاوية. لاسيما وان سياسة معاوية تجاه الشيعة كانت تتسم

بقدر من العنف غير محدود، أي سياسة "القتل على الهوية" بحيث لم تخل حتى عن معاقبة المرء على الهواجس والوساوس!![1]. وقد اعتزل المختار المعارضة آنذاك لأنه لم يجد فيها فيما يبدو قدرة على مواجهة السلطة. لكنه اعتزال لم يكن معزولا عن تخاذل الحسن بن علي وانتقال السلطة "الشرعي" إلى معاوية بطريقة اقرب إلى المساومة الجبانة منها إلى مساومة سياسية. من هنا أيضا إحجام الحسين وتقييده العملي والأخلاقي. وقد ترتب على ذلك سياسة التهدئة الأيديولوجية والعملية من خلال حث الشيعة على الهدوء والسكينة بانتظار الوقت المناسب، وخرج من الكوفة إلى ضيعة له خارجها، ولم يرجع إلى الكوفة إلا بعد أن دخلها مسلم بن عقيل موفدا من الحسين لشيعتها. بمعنى أننا نستطيع ان نرى في انعزاله وخروجه مع خروج الحسين بن علي ترابطا بين سلوكه السياسي وانتمائه الوجداني للتشيع.

مهما يكن من أمر هذه القضية، بمعنى ما إذا كان نزول مسلم بن عقيل لأسباب شخصية (علاقة ودية ومعرفة) أو مذهبية (بسبب ولائه الشيعي) أو

---

[1] وقد ميزت هذه الصفة أيضا الصدامية تجاه التشيع السياسي والحركات السياسية الشيعية. بحيث يمكننا الحديث عنها بوصفها أموية حديثة! فهي الحركات السياسية الوحيدة التي كان أعضاءها والمنتمين لها يتعرضون للقتل السريع. بل كان القتل يجري على الهواجس والوساوس. وبالتالي، فان ما يسمى "القتل على الهوية" هو طائفية سياسية لها تاريخها العريق. لكن إذا كانت في الماضي جزء من تقاليد الأموية الشامية، فإنها في تاريخ العراق الحديث جزء من تقاليد الأطراف "السنّية" والهامشية السياسية (الراديكالية) والثقافية. وهو الأمر الذي يجعل من الممكن تصنيفها على أنها نتاج زمن لا علاقة له بتاريخ العراق الفعلي، لأنها تتضاد مع مكوناته الجوهرية. وهي الظاهرة التي نعثر عليها في "وفود" الحركات الأصولية التكفيرية (البدوية الصحراوية، بالمعنى المباشر والثقافي) من قاعدية ووهابية وسلفيات متشنجة وأمثالها.

سياسية (بسبب ميوله العلوية) أو غيرها، فان مضمونه الفعلي بالنسبة للتاريخ يقوم في أبعاده السياسية. وسواء كان مرتبط بكفاءة المختار أو موقعه الاجتماعي وحصانته الفردية بسبب مصاهرة المختار لوالي الكوفة النعمان بن بشير (كان متزوجا من عمرة بنت النعمان بن بشير) بحيث يجعله في مأمن من الوالي ما دام مقيما في دار صهره، أو لأسباب أخرى، فان الواقعة التاريخية تقول، بان مسلم بن عقيل قد قدم إلى الكوفة يوم الخامس من شوال وأقام في دار المختار التي كانت آنذاك تدعى دار سلام بن المسيب. وقيل انه نزل على مسلم بن عوسجة الأسدي. لكننا نراه ينتقل لاحقا إلى دار هاني بن عروة بعد خطبة عبيد الله ابن زياد على اثر دخوله الكوفة وتهديده أهلها. فقد كان هاني بن عروة شيخ قبائل مراد ومذحج وزعيمهما، ومن بين الرجال المخلصين لأهل البيت[1]. وفي كل هذا النزول والانتقال يمكننا العثور على مواقف سياسية خالصة. فالمهمة الجوهرية التي قدم من اجلها مسلم بن عقيل هي مهمة سياسية. والمشاركة الظاهرة والمستترة فيها هي سياسية بالضرورة. وقد تكون بواعثها شخصية أو عقائدية أو مذهبية أو أخلاقية، إلا أن كل ذلك لا يتعارض مع أبعادها السياسية، بقدر ما يؤكدها. فللسياسة مظاهر لا تحصى، وكل ما يصب في طاحونتها لا ينتج غير دقيق الأفعال السياسية. كما نراها بجلاء في أعمال المختار اللاحقة وخاتمة حياته.

[1] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج1، ص110.

فقد تحول بيت المختار إلى ميدان الدعوة الحسينية الأول. وأصبح محط رحال الوفود القادمة من مختلف مناطق العراق والكوفة بالأخص، للإعلان عن استعدادها لمبايعة الحسين بن علي. وفي رواية تقول، بأنه بلغ عدد الذين بايعوه خلال أربعة أيام أكثر من خمس وعشرين ألفا. وفي بعض منها بلغ الأربعين ألف. ومهما يكن من أمر هذه الأرقام، فإنها بحد ذاتها مؤشر على طبيعة ونوعية وحجم النشاط السياسي الذي اشترك فيها المختار قبيل وصول الحسين إلى العراق.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الكوفة وكل ما له علاقة بنشاط الحسين بن علي، بعد إعلانه الخروج على السلطة الأموية، كانت تحت مراقبة دائمة ومتعددة الأوجه من جانب الولاة والمخبرين، من هنا يمكن رؤية أبعاد الإرادة السياسية في أفعال ومواقف المختار. وهي الحالة التي جعلت التيار الأموي آنذاك يحذر والي الكوفة النعمان بن بشير لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بالوقوف ضد ما وجدوا فيه تحضيرا للفتنة. وعندما تحدثوا معه بهذا الصدد، أجاب: لأن أكون ضعيفا في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون قويا في معصيته، وما كنت لأهتك سترا ستره الله"! وتوصل التيار الأموي إلى استرجاع عبيد الله بن زياد بعد تقديمه ليزيد بن معاوية على انه النموذج الأمثل، ولو كان الخيار أمام أبيه معاوية لما اختار شخصا آخر. وعينه يزيد واليا على الكوفة والبصرة، وأعطى له صلاحية الفعل بما يراه. واستعملها عبيد الله بن زياد بطريقته المعتادة من

تهديد ووعيد وترهيب وترغيب وعنف وإكراه وقتل وسجن. وقد كانت النتيجة قتل مسلم بن عقيل وعزل الحسين بن علي عن أهل الكوفة بردعهم والإجهاز عليه في واقعة هي الأشد مأساوية من حيث مقدماتها وغاياتها. لكنها الأكثر إثارة من حيث نتائجها بما في ذلك بالنسبة لتطور الفكرة السياسية.

وضمن هذه العملية الدرامية للصراع جرى عزل وتحييد المختار قبيل واقعة الطف التي قتل فيها الحسين. إذ يشير اليعقوبي في تاريخه إلى أن عدم اشتراك المختار في المعركة كان بسبب إلقاء القبض عليه من جانب الشرطة التي كلفها عبيد الله ابن زياد بملاحقة كل من خطط واشترك في التحضير لدعوة الحسين. وتشترك اغلب الكتب التاريخية بهذا الصدد على تصوير الحالة التي جرى فيها نقله إلى ابن زياد، وكيف أن الأخير ضربه بقضيب على وجهه ورأسه فأصاب عينه، ثم ألقاه في السجن مع غيره ممن اعتقلهم[1]. وقد حجز المختار في السجن فترة من الزمن. وهدد بالقتل، لولا تدخل أخته زوجة عبد الله ابن عمر، الذي تدخل بدوره عند يزيد بن معاوية من اجل إطلاق سراحه. وهو ما جرى بعد أن اخذ منه تعهدا بمغادرة الكوفة والعراق خلال بضعة أيام، وإلا فان مصيره القتل[2].

---

[1] ويمكن الرجوع الى كل حيثيات هذه الحادثة عند اليعقوبي: كتاب التاريخ، ج2، ص258.
[2] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص94.

لقد خرج المختار مقهورا ومجبرا من العراق، أو بصورة أدق انه تعرض للنفي السياسي. وفي ذلك نعثر على طبيعة الحراك السياسي الكامن في شخصيته، الذي سرعان ما جذبه من جديد إلى ميدان الصراع العسكري المباشر مع الأموية. فقد أقفلت الأموية عليه إمكانية التجسد السياسي لعقود طويلة. وحالما ظهرت إمكانية تحقيق ما يصبو إليه بفعل ما تراكم في شخصيته ورؤيته ومزاجه الروحي وأفكاره وعقائده، فان قطعها السريع من خلال إفشال انتفاضة الحسين بن علي واعتقاله ونفيه، قد عمق ووسع شحنة الاحتجاج الاجتماعي والسياسي والأخلاقي. إذ نعثر على هذا الحال في فترة بقائه في الحجاز وانضمامه السريع لحركة المعارضة السياسية ضد الأموية التي ترأسها آنذاك عبد الله بن الزبير.

فقد كانت مدة إقامته في الحجاز، هي مدة الانهماك الفعال في الصراع السياسي والعسكري. ويمكن تتبع الكثير من مفاصل ودقائق تاريخه الحياتي والبطولي في كتب التاريخ. وقد نقل لنا الطبري الكثير من هذه الجوانب. إذ نعثر فيها على اشتراكه الفعال في مواجهة الحصار الأول الذي فرضته جيوش الأموية التي كان يقودها الحُصين بن النمير. وقد قاتل المختار بضراوة. وعنه تشتهر العبارات القتالية البارعة مثل "يا أهل الإسلام! إليّ إليّ أنا ابن أبي عبيد بن مسعود! أنا ابن الكرار لا الفرار! أنا ابن المقدمين غير المحجمين! إليّ يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار! وهي عبارات اقرب ما تكون إلى شعارات سياسية منها

إلى أهازيج الدعوة القتالية. وقد خاض المعارك البطولية حتى وقت إحراق الكعبة عام 64 للهجرة. لكنها معارك كان يحركها من حيث الباعث الداخلي والغاية الخارجية موقف المعارضة الشاملة للأموية.

من هنا كان اللقاء بحركة عبد الله بن الزبير هو الوجه الآخر لموقفه من الأموية. كما أن استمرار العلاقة بها هو مجرد استمرار لمواقفه السياسية والروحية بوصفها حركة متممة لحركة الحسين بن علي، أي محكومة بالنسبة له بما فيها من مساع للانتقام من مقتل الحسين بن علي. وهو الأمر الذي نعثر عليه منذ خروجه من السجن واضطراره لمغادرة الكوفة والعراق. إذ تنسب إليه الكلمات التي قالها بعد خروجه من السجن "والله لأقطعن أنامل ابن زياد ولاقتلن بالحسين بن علي عدد من قتل بدم يحيى بن زكريا". وبالتالي لم يكن لقاءه بعبد الله بن الزبير سوى العملية الطبيعية لالتقاء الرؤية السياسية في أولوياتها. بمعنى اشتراكهما في الهموم الكبرى الظاهرية والتقائها في مهمة المواجهة المباشرة والعلنية ليزيد بن معاوية. لاسيما وأنه اشتراك كان يستجيب لهموم الإمارة (السلطة) عند عبد الله بن الزبير، ولهموم القضاء على الأموية عند المختار.

فقد وجد عبد الله بن الزبير أمله، بعد مقتل الحسين بن علي، في الحصول على الإمارة التي كانت حلمه الأكبر. بمعنى إمكانية استغلال التعاطف العام واستغلال طاقة الاحتجاج تجاه يزيد، بوصفه الوريث غير الشرعي للخلافة.

ونجح عبد الله بن الزبير في توظيفها بحيث تحول خلال فترة وجيزة إلى "خليفة شرعي" مقارنة بيزيد بن معاوية. وحصل على تأييد اغلب الأمصار الإسلامية. واتسمت هذه الشرعية بقدر كبير من الممارسة السلمية بسبب مجرى الأحداث السياسية في الإمبراطورية الأموية، أو بصورة أدق بسبب الحظ والمصادفة السياسية التي رافقت صعود عبد الله بن الزبير. فقد كان هذا الصعود يعود في اغلبه لمصرع الحسين بن علي. بحيث جرى استغلال تأثيره وآثاره النفسية والأخلاقية والوجدانية والروحية بطريقة تكفل للشعار السياسي الذي أطلقه عبد الله بن الزبير بصدد رضا الأمة والشرعية، إمكانية النجاح. أما استمرار الحركة فقد كان نتاجا لتأييد أهل العراق وإشغالهم الشديد للسلطة الأموية ومصادفة موت يزيد زمن حصار الجيوش الشامية لمكة. كل ذلك أعطى لعبد الله بن الزبير إمكانية الحركة والمناورة واستجماع القوى. بمعنى أن كل ما جرى لم يكن نتاج رؤية بديلة في نقضها للأموية، تأخذ بنظر الاعتبار مجرى تطور الدولة وقواها الجديدة. إذ لم يتخلص ابن الزبير من القوى الأموية، كما انه لم يشرك القوى الاجتماعية الجديدة للأمة الإسلامية بمعايير الرؤية الإسلامية العامة، مثلما سيفعل المختار في إشراك وإدماج قوى "الموالي" في الصراع الاجتماعي والسياسي. وبالتالي لم يكن تساهل عبد الله بن الزبير تجاه من قتل الحسين، بوصفه الحافر والشعار الذي جرى استغلاله والظهور تحت لوائه، مبنيا على أساس رؤية عقلانية أو مبدأ التسامح، بقدر ما أنه كان الوجه

الآخر لموازاة الباعث السلطوي للأموية، لكن بفارق المكونات الشخصية والتراث العائلي. فقد كان أبوه الزبير، وجده أبو بكر، وأمه أسماء، وخالته عائشة، كما قال عنه مرة ابن عباس.

لقد احتوت هذه العملية التاريخية السياسية على إمكانية الالتقاء والابتعاد، والوحدة والخلاف بين المختار وعبد الله بن الزبير. فقد وصل المختار إلى الحجاز بعد السجن والنفي السياسي. ومن ثم فهو يتمتع بقدر من المصداقية والتاريخ الشخصي والحياتي الذي يجعل منه قوة سياسية كامنة. وهي قوة لم تكن تجهل نفسها وما فيها، كما أنها لم تكن مجهولة لعبد الله بن الزبير بسبب قوة حاسة السلطة. وبالتالي يمكن النظر إلى لقائهما على انه لقاء سياسي صرف. وقد كان ذلك فيما يبدو معروفا للطرفين. لكنه لا يتعارض مع التنسيق في الموقف الجوهري العام – العداء للأموية. فقد كان هذا العداء محكوما عند عبد الله بن الزبير بحب السلطة، وعند المختار بحب الفكرة العلوية. وعندما التقت المصلحة المتوحدة بالمحبة المفرّقة، فإنها فعلت فعلها المؤقت. ومن ثم كان لابد لها من الافتراق. لكنه شأن كل افتراق سياسي كبير، عادة ما يكون محكوما في البدء بلقاء سياسي يعادله، كما نراه بعد وصول المختار إلى الحجاز بوصفه مكان منفاه المؤقت.

وليس مصادفة أن يكون المختار احد القوى التي ساهمت بصورة كبرى في استثارة شهية عبد الله بن الزبير للمطالبة بالإمارة، بمعنى إخراجها من

الكمون إلى الواقع. وقد استغل عبد الله بن الزبير إلحاح المختار عليه بالخروج على يزيد، بمعنى تحويل عدم البيعة والمعارضة الشخصية والفردية من جانبه تجاه يزيد إلى مطلب سياسي شرعي بحق الخلافة. لاسيما وأنها فكرة كانت تستجيب لما يسعى إليه عبد الله بن الزبير وتدغدغ أعماقه، لكنه لم يفصح عن ذلك إلا بعد أن أحس بان الفرصة سانحة والحالة ناضجة لإعلان العصيان على يزيد ورفعه إلى مصاف المطالبة بالخلافة بوصفها حقا شرعيا. ولم تكن هذا النتيجة بمعزل عن النشاط السياسي للمختار. وبالتالي لم يكن عملهما المشترك سوى ثمرة وفاق سياسي، أو مساومة سياسية كان للمختار موقعه الخاص فيها. فقد كان وسيطا بينه وبين العراق، كما انه عمل على جذب صهره عبد الله بن عمر بإعلان البيعة لعبد الله بن الزبير، لكنه لم يفلح.

ذلك يعني أن المختار لم يكن مجرد داعية سياسية عند عبد الله بن الزبير، بل ومؤثرا فيما يتعلق بالقرار السياسي والعسكري. وينبع هذا الموقع من خصال المختار ومشروعه السياسي بوصفه مناهضة للأموية، كما نراها بأشكال ومستويات مختلفة عند اغلب المؤرخين. وقد أشار ابن الأثير إلى أن المختار لازم ابن الزبير وشهد معه معاركه مع الحصين بن نمير وأبلى معه أحسن البلاء وقاتل أشد قتال. وفي كافة مواقفه وسلوكه العملي كان وفيا لابن الزبير، رغم أن الأخير لم يف بما وعده به[1]. ولم يكن ذلك معزولا عن المكان والتربية

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص 88-90.

والعائلة والشخصية والغاية. وليس مصادفة أن يكون صراع عبد الله بن الزبير مع المختار يقترب، بل يزداد عما في مواقف وغاية الأموية منه! والسر يكمن في إدراك خطورة المختار وبرنامجه السياسي، الذي كان يتجاوز من حيث الوسيلة والغاية كل من الأموية والزبيرية، بوصفها تيارات سلطوية وعائلية وتقليدية[1]. وهو الشيء الذي نعثر عليه في حياة المختار اللاحقة وسلوكه السياسي واصطدامه بالسلطتين الزبيرية والأموية بقدر واحد. ذلك يعني، أن المختار لم يكن يجهل شخصية عبد الله بن الزبير ونواياه الفعلية. وبالتالي لم يكن اللقاء بينهما سوى مقدمة الافتراق. وهي نتيجة محكومة أيضا بتاريخ كل منهما. فوجود المختار في الحجاز هو وجود مؤقت. على عكس ما كان عليه الحال بالنسبة لعبد الله بن الزبير. فقد كان الحجاز بالنسبة له مكان البداية والنهاية. وبالتالي لم يكن الحجاز بالنسبة للمختار أكثر من محطة انتقال عابرة، لأنه كان

---

[1] إننا نعثر على نفس ملامح هذا الصراع الآن من جانب القوى التقليدية للصدامية والتكفيريين الأصوليين (صدامية أموية، وتكفيرية زبيرية) ضد التيار الصدري. فالتيار الصدري هو أيضا مختارية، مع فارق الاختلاف بينهما من حيث المقدمات والمرحلة التاريخية والشخصية. والالتقاء الفعلي بينهما يقوم في الانتماء العراقي التام للحركة الصدرية وطابعها العربي. وهو تميز له أصالته،مقارنة بالحركات السياسية الأخرى. بمعنى انه الأقرب إلى الفكرة الوطنية العراقية والقومية العربية من حيث إمكانياته الذاتية. لكنها إمكانية لا تؤدي بالضرورة إلى هذه النتيجة. إذ تتوقف على طبيعة الاختيار السياسي البعيد المدى. بحيث كلما يقترب من فكرة العراق العامة والدنيوية السياسية كلما يصبح بالضرورة أكثر وطنية واشد تمثيلا لمصالح العراق الوطنية وأكثر اجتماعية. ومن الممكن تأمل ملامحها في وحدة فكرة العراق والعروبة والتشيع والثأر من الأموية (الصدامية). لكنها تبقى مجرد خميرة قابلة لصنع خبز الحياة أو إفساد المذاق!

مجرد منفى. وشأن المنافي لا يمكنها أن تكون بيتا للراحة ولا خلوة للسكينة ولا ملجأ للروح. لقد كانت مجرد محطة انتقال.

فقد كان ذهاب المختار للحجاز اضطرارا، ورجوعه إلى الكوفة اضطرار أيضا. ولكن شتان ما بين الاثنين. بينما لم يفكر عبد الله بن الزبير بالخروج من مكة، التي فقدت قيمتها السياسية منذ فترة طويلة. ولم يكن ذلك بمعزل عن التيار العلوي العراقي. فقد اخرج العراقيون الإمام علي بن أبي طالب من الحجاز، واستقدموا لاحقا ابنه الحسين وكل سلالته الجسدية والروحية. بحيث جرى دمج وتطابق التشيع بالعراق، والعراقيون بالعلوية للدرجة التي كان بإمكان كل منها القول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا! وهي حقيقة تاريخية، بحيث يمكننا القول، بان التيار العلوي قد حلّ في العراق كما ذاب العراق في الفكرة العلوية. ومنهما جرى صنع السبيكة التي جعلتهما روحان في جسد واحد. إن قلت العراق فانه إشارة إلى "شيعة علي"، وان قلت "شيعة علي"، فانك ترى العراق. وهي حقيقة أكثر من كان يدركها آنذاك الأموية والمختار، أي تلك القوى التي كانت تحس وتعرف بقوة الغريزة والصيرورة والكينونة جسد العراق وروحه.

إن ارتباط المختار بالحركة الزبيرية هو ارتباط بالنفس والمفاهيم والأفكار والقيم التي اعتنقها. وبالتالي لا علاقة صميمة أو جوهرية بينهما. من هنا سرعان ما تحول اللقاء إلى فراق، والاقتراب إلى ابتعاد، والمودة إلى جفاء،

والصداقة إلى عداء. وهي عملية طبيعية بسبب اختلاف النوازع والغايات. كما يمكننا العثور فيها على طبيعة الشخصية السياسية عند الاثنين. فقد كان كل ما في عبد الله بن الزبير محكوما بفكرة الإمارة، بحيث جعلته جشعا وبخيلا في كل شيء! على عكس المختار الذي كان صراعه محكوما بفكرة العدل وانتزاع الحقوق لأهلها. وبما أن الأموية قد جسدت من الناحية الفعلية والتاريخية نموذج الظلم والاستبداد وانتهاك الحقوق، من هنا تراكم نفسية وفكرة الانتقام منها. بحيث تحول شعار الانتقام والأخذ بالثأر منها إلى مضمون العقيدة السياسية المباشرة للمختار، أي إلى شعارها التحريضي العلني.

وبرز هذا الشعار بقوة عنيفة بعد أن توفرت للمرة الأولى إمكانية الجهر به بوصفه شعارا سياسيا عراقيا خاصا في الحرب ضد الأموية. وبما أن الأموية كانت النمط والتيار السائد في بنية الدولة والسلطة وعقيدتها المفروضة، من هنا كان العداء الشامل لها يحتوي في أعماقه على إمكانية الصراع مع القوى التي شكل صراعها مع الأموية صراعا جزئيا، أي مرتبطا بالموقف من السلطة فقط، كما هو الحال بالنسبة لحركة عبد الله بن الزبير. وهي إمكانية ما كان بإمكانها الخضوع طويلا لسيطرة عبد الله بن الزبير، كما لم يكن بإمكان الزبيرية أن تشكل غطاءا سياسيا داعما لها، وذلك بسبب فقرها الفكري وضعفها الروحي. ومن ثم فان إمكانية المختارية بوصفها مشروعا سياسيا بديلا للزبيرية في مواجهة الأموية لم تكن مجرد كمون واقعي، بقدر ما كانت الاحتمال الجدي

الوحيد. لاسيما وأنها عملية متراكمة لها تاريخها الخاص في العراق بوصفها جزء من صيرورته الجديدة وأثره المحتمل في صنع البدائل المتعلقة بنفي الفكرة الأموية.

فقد كانت حركة التوابين الصورة الجنينية الأولى لهذه البدائل. وقد أدرك المختار محدوديتها النبيلة، كما نعثر عليه في العبارة المترددة على لسانه عندما كان يأتي على ذكر سليمان بن صرد قائد حركة التوابين: "قد قضى ما عليه وقد توفاه الله وجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين". ذلك يعني أنه كان يدرك القيمة الروحية لحركة التوابين وطاقتها السياسية وضعفها في التنظيم والمواجهة مع عدو كبير مراوغ شرس، أوله حب الجاه وآخره حب السلطة، ودنياه المال وآخرته الثروة! وفيما بينهما جسد بلا روح ولسان بلا قلب! وقد قلب هذا الإدراك سياسة المواجهة العملية لتقاليد حركة التوابين. فعوضا عن التوبة الذاتية وتوجيه طاقة الاحتجاج ضد النفس ودفعها نحو مواجهة بلا تخطيط، سعى المختار إلى توجيه طاقة الاحتجاج ضد السلطة الأموية وحصرها بفكرة "قتلة الحسين" وتأطيرها ضمن شعار "الثأر للحسين". وبهذا يكون قد وجه طاقة الضمير المعذب والصدق الوجداني والإخلاص لتقاليد الفكرة العلوية العراقية ضمن تخطيط عملي ورؤية سياسية واقعية. بعبارة أخرى، لقد كان هذا التحول يحتوي على تنشيط وتفعيل التاريخ السياسي للمختار، وبالتالي إعادة تركيب مكوناته في الصراع مع الأموية

وغيرها. فقد كانت الهزيمة العسكرية لحركة التوابين انتصارا محتملا للرؤية السياسية الجديدة التي اخذ المختار يبشر بها. ومن ثم لم يكن انتهاء حركة التوابين سوى انبعاثها الجديد في شخصية المختار.

لقد كان رجوع المختار إلى الكوفة، فعلا مرتبطا بطبيعة التحول المحتمل والقلق الباطني الذي هز أركان الدولة الأموية بعد المفاجئ ليزيد بن معاوية. إذ أعطى دفعة قوية لعبد الله بن الزبير في توسيع رقعة الخلافة المناهضة للسلطة الأموية، كما أعطى دفعة جديدة للحركات الاجتماعية السياسية العراقية(الشيعية) بالانتعاش الجديد بعد ثلاثة عقود متتالية من القمع والتنكيل العنيف الذي طال كل مكونات وجودهم بعد مقتل الحسين. من هنا شدة وعمق الثأر المتراكم في أعمق أعماقهم من السلطة الأموية. وقد أنشأت هذه الحالة ورّبت وصنعت شخصية المختار، تماما بالقدر الذي وظفها بطريقة نموذجية، قد تكون الأولى والأرقى في تاريخ المعارضة العراقية بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب.

فالشخصيات العلوية العديدة، التي اشتركت في صراع دامي مع الأموية مثلما هو الحال بالنسبة لرفاعة بن شداد قائد بقايا جيش التوابين، أو الفارس الاجتماعي والسياسي (العسكري) إبراهيم الاشتر، لم تستطع العثور فيما يبدو على الوتر الذي عزف عليه المختار. فقد كانت ضرباته رقيقة دقيقة عميقة هزت الضمير الأخلاقي، وأشعلت لهيب الوجدان الروحي، وأثارت الحمية

السياسية، وأطربت الخيال التاريخي بإمكانية القضاء على الأموية وإعادة الحق إلى نصابه، أي إرجاع الخلافة إلى آل البيت بوصفهم حملة أو خزنة العدل والحق الإسلامي والإنساني. وقد كان وتر المختار بسيطا وفعالا، شأن كل أوتار الإثارة العميقة للجمهور، لكنه أصيلا شأن كل ما في تاريخ الأحداث الجسام والتحولات الحادة في التاريخ الفاعل والوعي السياسي. انه وتر الوجدان المعذب من مقتل الحسين وخذلانه. من هنا عذوبة الأصوات الصداحة في شعار "يا لثارات الحسين"! لقد تحول الثار إلى كلمة الأغنية ولحنها ونغمها. وفيها كان يمكن العثور على صدر البيت وعجزه، وقافية القصيدة وبحرها.

ومن الممكن تحسس هذه الحالة بعد ثلاثة عشر قرنا من الزمن في الأبيات القليلة التي قالها شاعر بعد دخول المختار إلى الكوفة عام 66 للهجرة والتفاف الناس حوله بعد رفعه شعار "يا لثارات الحسين":

ولما دعا المختار جئنا لنصره   على الخيل تردي من كميت وأشقرا

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت   تعادي بفرسان الصباح لتثأرا

لقد كان شعار "يا لثارات الحسين" الخطوة السياسية الكبرى الأولى التي رافقت رجوعه إلى الكوفة بعد فراق دام حوالي خمس سنوات. وإذا كان رجوعه من الناحية الزمنية والسياسية قد ترافق مع موت يزيد بن معاوية، فان مضمونه التاريخي يكشف عن طبيعة التحول الروحي والفكري في موقف النمط الجديد من المثقفين تجاه السلطة. فقد أدى موت يزيد بن معاوية إلى

استفحال الصراع من اجل السلطة داخل البيت الأموي من جهة، وبينه وبين القوى المعارضة من جهة أخرى. وهي قوى كانت متركزة آنذاك في شخصية عبد الله بن الزبير، التي أعطى لها موت يزيد شرعية كبيرة في الادعاء بحق الإمارة أو الخلافة.

لكن الصراع افرز أبعادا وقوى جديدة كانت تتراكم في مجرى عقود من الزمن. وبالاخص تراكم الوعي كان يحتوي في أعماقه على إدراك قيم الإسلام الأول وانكسار تاريخ خلافة الراشدين في مآسي الزمن المتكررة للعنف والاستبداد المميز للأموية. فقد تمثلت هذه القوى قيم الإسلام الكبرى ورؤيته التوحيدية بأبعادها الفكرية والروحية والاجتماعية والإنسانية. كما نظرت إلى هذه القيم والأبعاد عبر موشور الرؤية السياسية لمآسي مرحلة الانتقال من الخلافة إلى الملك، ومن الدولة العربية إلى الإمبراطورية الإسلامية. ومّثل المختار بشخصيته وحركته إحدى الصيغ النموذجية لهذين الجانبين. بمعنى انه تمثل على المستوى الشخصي والعملي السياسي قيم الإسلام الكبرى ورؤيته التوحيدية. وفيها نعثر على مجمل تصوراته وبرامجه عن الأبعاد الفكرية والروحية والاجتماعية والإنسانية المتراكمة في مجرى المعايشة الشخصية والتاريخية العامة لمرحلة الانتقال من الخلافة إلى الملك، ومن الدولة إلى الإمبراطورية.

الباب الثاني

العقيدة السياسية الجديدة

وفكرة الثأر الشامل

الفصل الأول

"يا لثارات الحسين"

شعار الثأر الأخلاقي والسياسي.



عايش المختار مرحلة الانتقال التاريخية الكبرى من الخلافة إلى الملك ومن الدولة العربية إلى الإمبراطورية الإسلامية بمعايير الانتماء الروحي والسياسي للتيار العلوي، بوصفه التيار الأعمق والأصدق تمثيلا لفكرة الحق والعدل والمساواة. وبما أن الأموية قد جسدت في كل أقوالها وأفعالها ونواياها وهواجسها الصيغة المضادة للتيار العلوي، من هنا كان زمنها هو سريان العنف والتعسف والاضطهاد بالمراقبة والتجسس والمضايقة والتشريد والنفي والسجن والتعذيب والتنكيل والقتل، باختصار زمن المآسي، الذي صنع ووّسع وعمّق فكرة الثأر بمختلف أشكالها ومستوياتها. وقد تمكن المختار من توظيف هذه الحالة عندما جعل منها شعار الانتفاضة الكبرى للعراق ضد الحكم الأموي بعد موت يزيد بن معاوية. فقد كان هذا الشعار يستجيب لمزاج أهل العراق عموما وأهل الكوفة خصوصا. كما انه التوظيف الذي يكشف عن شخصيته السياسية وأبعادها العملية، التي نعثر عليها في موقفه مما يسمى بإعطائه العهد أو اليمين على عدم إثارة الشغب أو المعارضة ضد السلطة، قبل أن يجري إطلاق سراحه من السجن ونفيه من العراق إلى الحجاز. وبهذا الصدد ينقل لنا الطبري خبر يروي كيف أن المختار قال، بأنه إذا حلف لهم بيمين

ورأى ما هو خير منها، فانه يدع ما حلف عليه ويأتي بالذي هو خير منه. لهذا اعتبر خروجه عليهم خير من الكف عنهم[1]. وهي رؤية سياسية خالصة تتعامل مع الأعداء والخصوم بحسب ما فيهم. بمعنى انه بقى متجانسا من الناحية الأخلاقية، وذلك لان سلوكه كان محكوما بفكرة الحق وليس السلطة. ومن ثم لم تكن عهود السلطة بالنسبة له أكثر من قسر وجبر وإكراه ومماطلة مسبوكة بمختلف أصناف الرذيلة. ولحسن الحظ، كما يقال، فان طبيعة الأحداث ومجرياتها قد حررته من كل "الالتزامات" المعنوية التي قطعها أمام السلطة الأموية وولاتها، بعد أن انهارت في الكوفة والعراق مع صعود عبد الله بن الزبير[2].

فقد تبدلت السلطة الأموية بأخرى زبيرية. الأمر الذي جعله موجودا وفاعلا في واقع جديد. كما انه وقف أمام تحديات ومهمات من طراز آخر. بعبارة أخرى، لقد حرره مجرى الأحداث من يمين لا معنى له! لكنه اجبره على الرجوع إلى تاريخه المكبوت وانقطاعه المفاجئ بسبب رذيلة الجمهور والنخبة والسلطة في مجرى ثلاثة عقود من الزمن، وبالأخص قبيل وبعد مقتل الحسين بن علي. ووجد المختار عصارة هذه الأحداث في كمية الكبت السياسي والروحي والأخلاقي الذي تعرض له أهل العراق بسبب السياسية الأموية وولاتها. من هنا مهارته السياسية الرفيعة ومعرفته النفسية والدعائية الفائقة في

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص94.
[2] المصدر السابق، ج7، ص90-91.

تحويل كمية الكبت إلى شعار نوعي سياسي وضعه في عبارة مكثفة واضحة وجلية هي "يا لثارات الحسين"[1]!

تضّمن شعار "يا لثارات الحسين" واحتوى في أعماقه على وحدة البساطة والعمق. ففيه جرى اختصار تاريخ المعاناة العراقية من الظلم الأموي. كما عبّر فيه المختار عن أهمية الانتفاض وطاقة الاقتصاص المكبوتة في أعمق أعماق النفس الأخلاقية والوطنية. بمعنى انه تمثل كل تاريخ الامتداد الروحي والمعنوي للإمام علي والحسين وحركة التوابين ومئات الآلاف من الأتباع والمؤيدين الين ذاقوا مختلف أصناف العذاب والمهانة. من هنا تحول هذا الشعار إلى مغناطيس الكسب المادي والمعنوي. والسبب بسيط للغاية، وهو أن الشعار كان اقرب إلى حقيقة ما يدور في خلد العراقيين وعقولهم وأفئدتهم وأرواحهم وأمزجتهم تجاه السلطة الأموية. من هنا التفاف الأغلبية حوله والانجذاب نحوه بطريقة هائلة أرعبت وأرهبت بقدر واحد القوتين المتناحرتين آنذاك،

[1] كشفت أحداث العراق، بعد سقوط الصدامية، عما في هذا الشعار من اثر وجداني وتأثير تاريخي يعكس الحقيقة القائلة، بان الشخصيات الكبرى هي التي تعيد إنتاج نفسها في المواقف، بوصفها مصدرا من مصادر النمو الفعلي للقيم الاجتماعية والروحية. وقد تمثل هذا الشعار في الماضي طاقة الاحتجاج الاجتماعي والسياسي والأخلاقي العراقي في الصراع ضد الأموية. وإذا كان له بعض مظاهره السلبية في ظروف العراق الحالية، بسبب عنف الطائفية السياسية لبقايا الصدامية، فان ذلك لا يقلل خطورته الفاعلة باتجاه تحريف الأبعاد الحقيقة الكامنة في شعار "يا لثارات الحسين" بوصفه شعارا يحتوي على قيمة وطنية عامة (عراقية). بمعنى انه يعمل في نهاية المطاف على شحذ روح الاحتجاج الاجتماعي بأبعاد عراقية عريقة.

الأموية والزبيرية. بحيث جعل هذا الالتفاف من المختار قائد التيار العراقي في الصراع من اجل ذاته.

وقد يكون من الصعب القول، بان المختار كان يحتكم في صراعه مع الأموية والزبيرية بفكرة العراقية، لكنها كانت تتخلل كامل سلوكه وأفاق نشاطه السياسي. كما أن "مادته" الاجتماعية هي عراقية خالصة. إضافة إلى أن العراق كان مصدر الشقاق والخلاف بين الأموية والزبيرية. مما جعله اقرب ما يكون إلى غنيمة المعارك وميدانا لها! بمعنى تحوله إلى أطراف في صراع القوى الكبرى آنذاك. الأمر الذي كان يثير فيما يبدو في أنفس العراقيين حفيظة الذاكرة التاريخية وواقع الإمكانية الفعلية التي تدفعهم مع كل إصرار في الاحتفاظ به والحرب من اجله، على إدراك قيمته المستقلة. وهو أدراك كان يحتوي على تراكم وعي الذات الجديدة، بوصفها مقدمة السؤدد والخلافة. وقد يكون ذلك هو السر الذي جعل من حركات العراق الاحتجاجية الكبرى أميل في هواها وعقلها للإمام علي. فقد نقل الأخير مركز الخلافة الروحي والسياسي إلى العراق. وجعل من الكوفة محطة إقدامه على إعادة تفعيل منظومة الحق. وهو فعل تاريخي جعل من كل حركة كوفية تقف بالضرورة أمام هذا الإغراء الروحي العظيم للاستنارة به أو تمثله وتمثيله. وإذا كان المختار هو أول من افلح في هذا المجال، فإنه يكون بذلك قد وضع أسس ما أسميته بفكرة صراع العراق من اجل ذاته. بمعنى دفعه للصراع السياسي من اجل أن يكون العراق

مركز الخلافة، بوصفها استعادة للحق التاريخي. وهو الدور الذي ستنفذه الدولة العباسية اللاحقة عندما أصبح استتبابها وتطورها تفتحا للقوى المتراكمة في تاريخ العراق العربي الإسلامي، أي القوى التي حددت إرساء أسس ما ادعوه بالصيرورة التاريخية والكينونة الثقافية التي طبعت خلافته العربية الإسلامية العامة.

غير أن الصراع من اجل النفس في العراق كما مثلته حركة المختار وتمثلته في برنامجه السياسي وسلوكه العملي، كان محكوما بفكرة الحق والعدالة والرجوع إلى مضمون الإسلام الأول والإبقاء على جذوته المشتعلة في نموذجه العلوي. وهو السبب الذي يفسر استقطابه للنخبة السياسية والعسكرية والروحية والاجتماعية المتربية بتقاليد الانتماء الفكري والروحي والعقائدي للعلوية، مثل القائد الأخير لحركة التوابين رفاعة بن شداد، إضافة إلى يزيد بن انس، وأحمد بن شميط، وعبد الله بن شداد الجشمي، والسائب بن مالك الأشعري. وعمل هؤلاء بجدية وحماس من اجل كسب التأييد المادي والمعنوي له بين أهل الكوفة والبيعة له[1]. لكنها عملية لم تكن سهلة الانقياد، بسبب تنوع وتباين تاريخ الكوفة السياسي بين العامة والخاصة. والأخيرة كانت في اغلبها من "أشراف" الماضي وأتباع السلطة الأموية. إضافة إلى تفكك القوى السياسية الشيعية بسبب تعرضها للعنف المنظم على امتداد عقود من

[1] المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص74.

الزمن، الذي جعل من الممكن الشك بقدرة أو نزاهة أو صلاحية أو شرعية أي قائد جديد. لاسيما وان تجربة الحسين بن علي ما زالت قريبة العهد وطرية في الأذهان والذاكرة. من هنا نرى تردد بعض كبار الشيعة في الكوفة وأكثرهم إخلاصا بل ومغالاة في العداء للأموية مثل إبراهيم من الاشتر، من الانضمام إلى جانب المختار[1]. لكنه تردد مرتبط أساسا برؤيته الحذرة ومساعيه الخاصة بصدد تنظيم القوى وتوجيهها وإدارتها من اجل النجاح. وهي رؤية كانت تحتمل إمكانية الظهور في حركة مستقلة لقيادة أهل العراق، لكنه اضطر تحت ضغط الحماس الهائل لأهل الكوفة والعراق للانضمام إلى حركة المختار[2].

فالمشهور عن إبراهيم بن مالك الاشتر النخعي كونه احد أشراف الكوفة ورجال الشيعة الكبار والمؤثرين. وكان، شأن أبيه مالك الاشتر، مخلصا في انتمائه وولائه لآل البيت العلوي. بل يعرف عنه انه كان شديد الغلو في عدائه للأمويين. غير انه كان حصيفا وواقعيا. وقد تكون الأحداث التاريخية اللاحقة اقرب إلى تأييد رؤيته. بمعنى انه سعى لكي تكون حركة المواجهة ضد السلطة الأموية أكثر استعداد ومبنية على أساس إدراك مكامن القوة والضعف عند

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص89.

[2] يمكن رؤية اغلب معالم هذه الحالة في الصراع الخفي والعلني المعاصر في العراق بين زعماء التيار الشيعي، وبالأخص بين آل الحكيم والحركة الصدرية. فالأوائل مخلصون "لآل البيت" ولكن بالصيغة التي تعطي لهم "حق القيادة" و"الإمامة" و"المرجعية"، أي مصادرة التاريخ والروح والعقل!! وهي مصادرة لا معنى لها وتفتقد لأبسط مقومات الرؤية السياسية العقلانية. وبالتالي عرضة للفشل السريع في القريب العاجل.

الطرفين من اجل التخطيط الأمثل عبر تجميع القوى وحشدها وتوجيهها في الوقت المناسب. انه كان يفكر بطريقة بعيدة المدى وتخطيطية تعكس معالم الزعامة السياسية والعسكرية. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار انه كان على صلة برجال وزعماء آل البيت.

لكن إبراهيم الاشتر لم يخل من صفات الزعامة، التي نعثر عليها بصورة غير مباشرة في تجنبه الاشتراك الفعال والمباشر في حركة التوابين. وقد يكون السبب أنه وجد فيها حركة اقرب إلى الانفعال الوجداني منها إلى مواجهة ضرورية ضد الأموية. والشيء نفسه يمكن توقعه من مواقفه الأولية تجاه حركة المختار. فقد اتسمت بقدر من الشك والحذر. لكنه شك وحذر مبني فيما يبدو على أساس رؤيته المذكورة آنفا. وهو أمر يمكن التحقق منه من اشتراكه اللاحق في الحركة وإدارة جناحها العسكري. حيث يشير هذا الاشتراك بدوره إلى أن فعل المختار وزعمه بالتحرك بعد موافقة محمد بن الحنفية، يحتوي على قدر من المصداقية كبير.

غير أن للتاريخ السياسي وهواجس الانفعال السياسي آثارهما الخفية مع مرور الزمن بالنسبة لتثليم القيم الأخلاقية والروحية. وقد يكون هو السبب المحتمل وراء تباطؤ إبراهيم الاشتر لاحقا من نجدة المختار عندما حاصرته قوات مصعب بن الزبير.

ولكن قبل أن تبلغ الأحداث هذه النتيجة، فإنها مرت بمراحل درامية ومثيرة. فقد استطاع المختار في نهاية المطاف كسب الأغلبية، بما في ذلك إبراهيم الاشتر. مع ما ترتب عليه من إقرار بقيادته السياسية لانتفاضة العراق ضد الأموية[1].

وقد يكون انضمام إبراهيم الاشتر إلى حركة المختار بإيحاء من محمد بن الحنفية كما يمكن استشفافه من الأخبار التي يوردها الطبري بهذا الصدد[2]. خصوصا وأن المختار سعى لكي يكون ممثلا لآل البيت وناطقا باسم محمد بن الحنفية. ومهما يكن من أمر التمثيل "الناطق" للإمام "الصامت"، فان تحول عبارة "يا لثارات الحسين" إلى شعار فعال وساحري في كسب جماهير الكوفة قد جعل من المختار قائدا سياسيا من طراز عراقي جديد، ومن ثم قائدا عربيا وإسلاميا عاما.

ولم يكن هذا التحول مرتبطا آنذاك بتماهي العراقي مع العربي والإسلامي، بقدر ما كان مرتبطا بطبيعة الشعار ومحتواه العملي[3]. إذ نعثر في تحول إبراهيم

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص268.

[2] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص98-99.

[3]. يقف العراق حاليا أمام نفس هذه الأبعاد بعد تحطيم كل هذه الأبهة المزيفة للنعرة القومية، التي جعلت الصدامية منها أسلوبا وغلافا للجهوية والقبلية والعائلية والطائفية! وليس مصادفة أن يكون شعارها القومي المفرط، كما هو الحال في الشام السوري، نابعا من إيديولوجية واحدة، ومفصلا بنفس الكلمات، ومثيرا لاحتراب بينهما بطريقة اقرب ما تكون إلى صراع قوميات عرقية! ومن الممكن رؤية صنوها القديم في صراع الأموية مع الزبيرية، بوصفه صراعا من اجل الاستحواذ والسيطرة. بينما كانت حركة المختار محاولة لتذليل هذا العنف الهمجي للجهوية بمفاهيم الرؤية الكونية البديلة.

الاشتر إلى احد المع القادة العسكريين للحركة، واشتراكه في التخطيط للقضاء على الأموية والزبيرية في العراق على أبعاد ما أسميته بتأسيس وعي الذات العراقي، بمعنى خروجه على معايير القبلية والجهوية والوطنية الضيقة. لكنه يحتوي عليها بوصفها المكونات الأقرب لمعاناة الإنسان الفعلية آنذاك. ولم تكن هذه القضية من حيث مظهرها وبواعثها المباشرة معزولة عن الصراع المفتعل بين العراقيين وأهل الشام، الذي جعلت منه الأموية أسلوبا للتحكم بالخلافة ووسيلة للإبقاء على السلطة بيدها. لكنه أسلوب كان يتعارض من حيث الجوهر مع مجرى توسع الدولة وبناء الإمبراطورية، بوصفه التيار العارم للتكامل الثقافي بين مختلف أقوامها وشعوبها، الذي وجدت فيه الأموية تيارا مقوضا لهيمنتها الارستقراطية. وضمن هذا السياق، كان صراع المختار مع الأموية يحتوي في أعماقه على نقيض لها، من حيث كونه إمكانية ونموذج واعي كما هو جلي في برنامجه السياسي. وهو نقيض كان يعمل، شأن كل حركات الاحتجاج والمعارضة الكبرى للأموية، على توسيع هموم الأفراد والجماعات وإدراجها ضمن الهموم الكبرى. وأدت هذه الهموم في مجرى عقود طويلة من الاحتراب والتضحية إلى جعل الأهداف الكبرى أسلوب وجودها ونشاطها ومصدر مصداقيتها، ومن ثم مرجعيتها بالنسبة لاستقطاب القوى الجديدة. وصنع ها الاستقطاب من "التيار العراقي" المناهض للأموية فكرته الكونية. ومن ثم، تمثّل ما يمكن دعوته بالتيار العراقي في رؤية البدائل الكبرى للدولة

والإمبراطورية. وسوف تتكشف الأبعاد المعقدة والجميلة لهذا الاحتمال في المرحلة العباسية

بينما تراكم هذا المحتوى في مجرى صعود المختار إلى قيادة العراق، وفي خضم الصراع الدموي العنيف وسريانه السريع الذي ميز تلك المرحلة. وتكشف هذه الصفات عن ديناميكية القوى والمصالح والاحتراب. كما انه السبب القائم وراء صعود حركة المختار وفعالية شعاره وسقوطه. وإذا كانت تلك الفترة قصيرة بمعايير الزمن، فإنها مديدة بمعايير التاريخ، لأنها أرست أسس جديدة وأنتجت حراكا اجتماعيا فكريا هائلا قوض بعد عقود قليلة أسس الإمبراطورية الأموية ليبني على حطامها منظومة الدولة العربية الإسلامية العالمية.

فمن الناحية التاريخية، كان العراق تحت سيطرة عبد الله بن الزبير بعد موت يزيد بن معاوية عام 64 للهجرة. فقد عين عبد الله بن مطيع حاكماً على الكوفة بعد هروب عبيد الله بن زياد. وهي المرحلة التي ظل فيها المختار محاربا ومستشارا إلى جانب عبد الله بن الزبير. كما أنها المرحلة التي توسعت فيها سيطرة عبد الله بن الزبير على أنحاء واسعة من الإمبراطورية الأموية. لكنها سيطرة لم تغير من واقع العراق شيئا. بمعنى أن الحركة الزبيرية لم تفعل شيئا مما أعلنته عن القصاص من قتلة الحسين. إذ نرى بقاء كل قتلة الحسين بن علي كما هم مثل شمر بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعي، وعمر بن سعد، وعمرو بن

الحجاج وكثير غيرهم. وتمتعوا بنفس الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها زمن يزيد. كما لم يكن هناك تجسيد لقيم العدل والمساواة التي دعا إليها. إذ لا شيء في سلوكه السياسي الاجتماعي كان يوحي بقدر من تغيير سياسة الأمويين الاقتصادية تجاه العراقيين. خصوصا وأنها كانت تتسم بالحيف وانعدام العدل والعقوبة العلنية والمستترة.

وكما كان الحال بالنسبة للأموية جرى الإبقاء على العراق مجرد تابع ومرتع لمصالحه الشخصية والعائلية والقبلية والحجازية على أفضل تقدير. وبالتالي لم يكن الإبقاء على الأشراف والتعامل معهم على حساب الأغلبية من المسلمين، والمستضعفين" منهم بالأخص من الموالي وأمثالهم، سوى السير في نفس قواعد الأموية بوصفها خروجا على فكرة الإسلام وجوهرية المساواة فيه. كما أن سلوكه مع العراقيين لم يتسم بالتجاوب مع تراثهم السياسي والروحي الشيعي. بحيث نرى عامله الجديد على الكوفة عبد الله بن مطيع يقف موقف المعارض والمخرب لحركة التوابين. وفي أول وصوله إلى الكوفة نراه يخاطبهم بعبارات التهديد والوعيد والترغيب بعد وضعها في صيغة لا اثر لها ولا طعم ولا ذوق ولا نكهة في عرف التقاليد الكوفية. فنراه يخاطبهم بكلمات: أما بعد فإنّ أمير المؤمنين عبد الله ابن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم وأمرني بجباية فيئكم. وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضا منكم. وأن أتّبع وصية عمر ابن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفان. فاتقوا الله

واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم فإن لم تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني! فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي، ولأقيمن درع الاصعر المرتاب". بعبارة أخرى، إننا نقف هنا أمام خطبة معزولة عن واقع الكوفة بجدار الغباء الأموي وتقاليد العنف والإكراه المقززة للذوق العراقي. ووقد أثارت هذه الفكرة أهل الكوفة بحيث قاطعه بعض القوم، كما جرى على لسان السائب بن مالك الأشعري عندما قال له: «أما حمل فيئنا برضانا فإنّا نشهد إنا لا نرضى أن يحمل عنا فضله، وأن لا يقسم إلا فينا، وأن لا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك. ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطاب فينا وإن كانت أهون السيرتين علينا وكان يفعل بالناس خيرا "[1]. وأيده احدهم وهو يزيد بن أنس، قائلا: صدق السائب وبرّ! عندها استبدل عبد الله بن مطيع منحى كلامه وأكمله بعبارة: نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها![2]

وليس مصادفة فيما يبدو أن يقول احد فقهاء الورع المسلمين لاحقا، بعد زيارته للكوفة قائلا، من يريد الحصول على "الشهادة" في الكوفة فلا عليه غير أن يقول "رحم الله عثمان بن عفان"!! إننا نعثر في هذه العبارة على إفراط وتفريط في الموقف من أهل الكوفة (العراق) لكنها تحتوي دون شك، على تلمس طبيعة المواقف والانتماء العراقي منذ القدم لفكرة التشيع لآل البيت،

---

[1] أنساب الأشراف، ج5، ص220-221.
[2] الجزري: الكامل في التاريخ، ج4، 211-213.

بوصفه تشيعا لفكرة الحق والعدالة والمساواة والشرعية، التي وجدوا نموذجها الإسلامي الأرقى في شخصية الإمام علي. وهو تطابق له مذاقه الخالص بمعايير الشريعة والحقيقة. بمعنى أنهم نظروا إلى الشرعية بمعايير الحقيقة وليس بمعايير التسلسل الزمني لوجود الأفراد والسلطات والأشياء. فالتسلسل لا يحتوي على حقيقة بالضرورة، وإلا لكانت الأحجار والحيوانات أكثر رفعة من البشر والأنبياء والحكماء والعقلاء والمصلحين وغيرهم. والحديث لا يجري هنا حول "الأفضلية"، لأنها إشكالية! بل أكثر من إشكالية حالما يجري تطابق الأفضلية مع تسلسل الأحداث التاريخية. وذلك لان التسلسل هو مجرد وقائع الوجود وسريان ما فيه. ومن ثم لا يحتوي بحد ذاته على قيمة معنوية مستقلة يمكن رفعها إلى مصاف "المقدس". من هنا كان رفض أهل الكوفة لعثمان بن عفان محكوما بفكرة الحقيقة. انه رفض يحتوي على قدر من التعصب، لكنه تعصب للحق والحقيقة. وقد يكون غير محمود بحد ذاته، لكنه معقول ومقبول بمعايير الصراع التاريخي العنيف الذي ميز وجودهم وحالتهم الاجتماعية تحت حصار الأموية واضطهادها إياهم، وقهرها واستبدادها بهم، وأهانتهم بعد أن أصبح انتصارها وحياتها اللاحق مقرونا بقميص عثمان. بعبارة أخرى، ينبغي فهم مواقف أهل الكوفة من عثمان بمعايير العراقية والحق التاريخي. فقد تطابق عثمان في تاريخ الأموية مع قميصه! بحيث تحول شعار (قميص عثمان) إلى عبارة مأثورة تشبه من حيث

الرمز والمعنى عبارة "حصان طروادة"، أي تحتوي على إشارة لمعنى الغيلة والرذيلة والتخريب المادي والمعنوي وموت الأبطال العقلاء وعيش الجبناء والسفهاء. وهو السر القائم وراء ظهور شعار (يا لثارات الحسين) بوصفه شعارا عراقيا مهمته الثأر من اجل الحق والحقيقة.

لقد تمثلت حركة المختار المكونات الجوهرية لخلل الحركة الزبيرية، من عدم الاستجابة لمقتل الحسين وقتلته، ومبدأ العدل والمساواة وفكرة العراق والعراقية. لقد تمثّل المختار في رؤيته للصراع والآفاق والبدائل القضايا الجوهرية التي كان بإمكانها استقطاب العراقيين في الصراع ضد الأموية والزبيرية على السواء، ولكن من خلال أولوية وجوهرية المبادئ العامة المتعلقة بالاقتصاص من قتلة الحسين بوصفه انتماءا شيعيا، وتوزيع عادل للثروة بوصفه مبدأ اقتصاديا سياسيا، ودعوته للمساواة من خلال دمج الموالي المستضعفين بوصفه مبدأ اجتماعيا وإسلاميا وإنسانيا عاما، والتعويل على أهل العراق في خوض الصراع ضد الأموية. ذلك يعني انه ربط في برنامجه الجديد الجانب السياسي والاجتماعي والروحي والقومي والإسلامي العام.

وسوف تبرز الملامح النظرية والعملية لهذا الربط في وحدة شعار الثأر للحسين والعدالة في توزيع الثروة ومساواة أفراد المجتمع من خلال إلغاء فكرة "الموالي" و"الأشراف" الأموية بإعلاء شأن "المستضعفين" واتخاذهم قاعدة اجتماعية لتحقيق أهدافه السياسية العراقية. بمعنى انه ربط المكونات

الكبرى للفكرة الاجتماعية العراقية العربية الإسلامية عبر تأسيسها بمقومات الرؤية الإنسانية. وقد كانت تلك الذروة التي وجدت انعكاسها في سعيه لتحرير العراق (والخلافة) من فكرة الاستعباد والاسترقاق، بما في ذلك تذليل فكرة "الموالي" بوصفها الصيغة الأولية والجنينية للغزو والحرب. واحتوت هذه الممارسة في أعماقها على فكرة الحرية بأبعادها الدولتية والإنسانية. بعبارة أخرى، إن الملامح الأولية لبرنامج المختار قد أخذت بالبروز من خلال التخطيط للعودة إلى العراق وبدأ الجهاد السياسي المستقل عن تأثير التيار الزبيري وسلطة عبد الله بن الزبير.

رجع المختار إلى العراق عام 66 للهجرة، أي بعد حوالي خمس سنوات من الفراق، قضاها في المواجهة العلنية والمباشرة والعسكرية ضد السلطة الأموية. لكنها مواجهة كانت مختبئة وراء واجهة الحركة الزبيرية. وبما أن الخلاف بينهما كان محددا بالغاية، من هنا لم يكن بإمكان العدو المشترك أن يحافظ على قواعد الود والمنطق فيها. من هنا تراكم الاعتراض والاختلاف ولحد ما العداء والتناحر بينهما مع مرور الزمن. وهو السبب القائم وراء خروج المختار إلى العراق واستقلاله في العمل السياسي. وتتفق الروايات التاريخية، بان المختار خطط مع نخبة من مؤيديه وبالأخص مع إبراهيم الاشتر بان تكون ليلة الخميس في الرابع عشر من ربيع الأول 66 هجرية موعد إعلان الخروج ضد الحكم الزبيري في الكوفة. وبما أن المعلومات قد سربت أو وصلت بطريقة ما من الطرق إلى والي الكوفة الزبيري عبد الله بن مطيع، فانه حاول إعاقة المختار من القيام بذلك، مما ساهم في التعجيل

بإعلان الخروج العلني على السلطة الزبيرية والأموية. وتروي الأخبار التاريخية كيفية حصول ذلك بما حدث مع إبراهيم ابن الاشتر، الذي كان بصحبة عشرات من المسلحين في طريقه إلى منزل المختار. وقد اصطدم بصاحب الشرطة إياس بن مضارب الذي اعترض طريقه، فطعنه إبراهيم برمحه طعنة أودت بحياته[1]. بحيث عجّلت هذه الطعنة من إعلان الخروج التام الذي حدث يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول 66 هجري. بمعنى قبل يومين من موعد إعلانها. وكشفت هذه المفاجئة بدورها عن طبيعة الهشيم الهائل تحت أقدام السلطة الزبيرية في الكوفة. فقد كانت من حيث مكوناتها اقرب إلى سلطة أموية، أي بلا تاريخ روحي ولا مقومات فكرية ولا أسس اجتماعية عريضة. وليس مصادفة أن يكون "أشراف" الماضي الشريحة الاجتماعية الوحيدة التي وقفت إلى جانب السلطة. من هنا سريان الانتفاضة السريعة وانهزام قيادة القوة العسكرية للسلطة وأشرافها والوالي عبد الله بن مطيع. حيث تروي كتب التاريخ كيفية هروبه وتخفيه ولجوئه إلى منزل أبي موسى الأشعري[2]. ذلك يعني، إننا نقف أمام حالة تكشف عن هشاشة السلطة الزبيرية في الكوفة بوصفها حاضنة العراق الكبرى. فقد تم الانقلاب التاريخي في الحكم دون إراقة دماء أو عنف كبير. فالأشراف طلبوا الأمان، فأجيبوا إليه. بينما وافق والي الكوفة عبد الله بن مطيع مقابل مائة ألف درهم بالخروج منها والسفر إلى البصرة!

---

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص100.
[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص267.

الفصل الثاني

العقيدة السياسية وفكرة الثأر الشامل



لقد كان الانقلاب الذي أحدثه المختار تحولا هائل في المبادئ والمفاهيم العملية. انه خروج على تاريخ "العائلة المقدسة" والقبيلة والعرقية باسم مبادئ أعلى، هي نفي واقعي وإنساني لها في نفس الوقت. بمعنى أنه يسير ضمن قيمها الرفيعة ولكن بوصفها عملية سياسية اجتماعية عراقية إسلامية عامة. وقد وضعها المختار ضمن خمسة مبادئ كبرى في أول خطبة له في الكوفة بعد الاستيلاء عليها، في عبارة واحدة تقول "تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحليّن والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا، والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم"[1].

ومن هذه العبارة تتضح معالم المبادئ الكبرى الخمسة وهي:

أولا، أن تكون شروط المبايعة للحكم مقيدة بالشرع الإسلامي (القرآن وسنّة النبي محمد فقط).

ثانيا - مبدأ الاقتصاص من قتلة آل البيت بوصفها جريمة تاريخية وأخلاقية، على أن يكون الاقتصاص جهادا دائما مفتوحا ضد كل أولئك الذي

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص108-110.

احلوا المحرمات (الحقوق والواجبات) وجعلوا من انتهاكها أسلوبا لوجودهم.

ثالثا - مبدأ المساواة المقيدة بالحق والحقوق عبر الدفاع عن حقوق المستضعفين بوصفهم عماد الأمة وقاعدتها وقوتها الضرورية.

رابعا - مبدأ شرعية القوة ضد القتلة والمجرمين والتزام السلام مع المسالمين.

خامسا - أن علاقة الولاة بالمجتمع هي علاقة موزونة بالعهد المشترك بينهما ومعقودة بالالتزام بجميع مبادئه العامة.

إننا نقف أمام عقيدة سياسية واضحة المعالم تحدد المبادئ العامة وأولوياتها، والتي يمكن اعتبار ما فيها بداية الفكرة السياسية المتحررة من تقاليد الماضي. أنها تستعيد من حيث الرؤية العامة عقيدة الإمام علي بن أبي طالب تجاه النفس والمجتمع والدولة والسلطة، لكنها بالخلاف عنه رفعت قضية الثار السياسي إلى أسلوب الإدارة العامة للصراع الاجتماعي والسياسي. فإذا كان الإمام علي يعتبر أخر الدواء الكي، فان المختار جعل منه الجرعة الأولى الضرورية للشفاء. وهو خلاف المرحلة والشخصية. فقد كان الإمام علي يقاتل من اجل الأمة والدولة والفكرة، بينما كان المختار يقاتل إلى جانب ما هو مذكور أعلاه من اجل الإمام علي وآل بيته أيضا، أي من اجل إعادة الاعتبار لمكونات التاريخ الروحي الفعلي للخلافة.

ويمكن رؤية الملامح العلنية والمستترة لهذا الاستنتاج في عدم إعلان المختار نفسه واليا أو خليفة، بل مجاهدا باسم آل البيت ومحمد بن الحنفية بشكل خاص. وأحتوت هذه الحالة في أعماقها على مشاريع شتى. فقد كان المختار من أنصار الفكرة التي مثلها سليمان بن صرد. والأخير كان معارضا للحسن بن علي لتركه الخلافة، ومناصرا للحسين، ومقاتلا ومقتولا من اجله. والمختار سار في نفس الطريق ولكن من خلال مبادئ نظرية وعملية مترابطة وواضحة. مضمونها التقيد بأحكام القرآن والسنّة النبوية، والرجوع إلى نموذج الإمام علي بن أبي طالب في الموقف من الإمامة والأمة (السلطة والمجتمع)، وضرورة تحقيق العدالة والمساواة بين المسلمين وطرد الأموية والزبيرية من العراق. لكنها مبادئ لم يكن بإمكانها التحرر، في ظل الفتنة والصراع العنيفين وكمية ونوعية الاستبداد وحجم عذابات أهل العراق، من إغراء التشفي العارم. وهو الشيء الذي تحسسه وأدركه ووظفه المختار بطريقة نموذجية. لكنه توظيف يتسم بقدر كبير من الواقعية والضرورة، بوصفه رد الفعل المناسب على زمن الاستبداد وخلل بنية "الأشراف" أو الارستقراطية الجديدة. وبالتالي لم تكن عبارة "يا لثارات الحسين" شعارا لقتل المجرمين والمستبدين، بقدر ما كانت شعار العقيدة السياسية لثأر التحدي والبدائل[1]. وذلك لأنها

[1] إننا نسمع صدى تلك الأحداث والمواقف والشعارات فيما أطلق عليه بعد الإطاحة بالدكتاتورية الصدامية والتوتاليتارية البعثية شعار "اجتثاث البعث". وتقترب هذه الصيغة من حيث حوافزها وأبعادها بما سبق وان أطلق عليه المختار شعار "الثار لقتلة الحسين".لكنه شعار

مبادئ كانت تؤسس من الناحية التاريخية والروحية لفكرة الجمعية الثقافية التي شارك في تأسيسها كل مثقفي الاحتجاج الفكري والروحي والسياسي. أما المختار فقد وحّد في ذاته مختلف مكونات وصيغ هذا الاحتجاج، بحيث جعل منه بالفعل احد أوائل المثقفين العرب المسلمين الكبار الذين أرسوا أسس المثقف المجاهد.

لقد كان الثأر محكوما بفكرة سياسية هي مضمون الحركة المختارية – شعارها الثار وغايتها العدالة والمساواة عبر القضاء على الأموية. ومن الممكن العثور على هذه الغاية في تلك الرواية النموذجية التي توردها كتب التاريخ عنه عندما هدد بالقتل بشر بن غالب ورجل آخر معه ممن نقم عليهم لسلوكهم الخائن، فأجابه بشر بن غالب:

- والله ما تقدر على قتلنا!

- لم؟ ومم ذلك!! ثكلتك أمك وأنتما أسيران في يدي؟!

كان يحتوي على كل التكثيف العنيف لفكرة الانتقام الوجداني والأخلاقي والسياسي من رذيلة الأموية في اقترافها "جريمة العصر" في العراق. فقد كانت هذه الجريمة تعادل من حيث أثرها الوجداني في الضمير العراقي مع ما اقترفه البعث الصدامي تجاه العراق بشكل عام وأهل الكوفة (أي أهل العراق الأصليين) بشكل خاص. وليس مصادفة أن يطلق معاوية على أهل العراق عبارة "الغوغاء" كما سيطلقها صدام بعد ان يضيف لها كلمات "أهل الغدر". إذ تكشف هذه العبارة عن طبيعة ومستوى الاغتراب الفعلي عن العراق الحقيقي وحقيقة العراق. وهو سر صعود "الثار" من الأموية، و"اجتثاث البعث". فكلاهما من مصدر واحد ويرمي إلى غاية واحدة، ألا وهي إرجاع العراق للعراقيين، عبر رفع شعار العدل والمساواة والحرية، بوصفها الشعارات الأكثر جوهرية في ظروف العراق الحالية كما كانت قبل ألف وأربعمائة سنة، عندما وضع المختار شعاره التاريخي الكبير وبرنامجه السياسي.

- لأنه جاءنا في الحديث أنك تقتلنا حين تظهر على دمشق فتقتلنا على درجها!

- صدقت قد جاء هذا!

وهي رواية نموذجية من حيث محتواها المجرد وليس من حيث واقعيتها. وذلك لما فيها من حشو أيديولوجي مختبئ وراء المحاولات اللاحقة لجعله جزء من تاريخ الأحاديث الملفقة، التي اشترك فيها الجميع، لكن اغلبها كان من وضع السلطة ومرتزقتها. وذلك لان الصيغة الظاهرية للرواية وحوارها يسعى لإبراز اقتناع المختار بوصفه رجل "التاريخ الإلهي". لكنها تحتوي من حيث إشارتها الباطنية المجردة على أن الهمّ الأكبر في شخصية المختار وسلوكه السياسي هو الإطاحة بالأموية وقتل مؤيدها على أبوابها. وهي هموم وضعها في شعاره الشهير "يا لثارات الحسين"، التي شكل تاريخه السياسي الخاطف تحقيقا "أبديا" لها.

كما نعثر على الصدى النموذجي لهذا التاريخ المشحون بتنفيذه العنيف لمبدأ الاقتصاص من قتلة أهل البيت وجهاد المحليّن، أي من احلّ المحرمات (الحقوق والواجبات) في رواية "شيعية" تحكي عن دخول احد رجال الشيعة واسمه منهال على المختار وهو في أوج مطاردته لقتلة الحسين. حيث يقول فيها، بأنه حالما قدم إلى الكوفة، بعد أن ظهر فيها المختار بن أبي عبيدة الثقفي، حيث بقي في منزله أياما حتى انقطع الناس عنه من الزيارة. وبعد أن خرج من

البيت والتقى بالمختار، سأله عن سبب عدم مجيئه إليه لتهنئته في ولايته ومشاركته إياه فيما يقوم به، أجاب منهال، بأنه كان في مكة وأنه جاء الآن قاصدا إياه. وحالما كانا يتحادثان في سيرهما، فإذا بالمختار يقف ناظرا منتظرا. وإذ بالناس تأتيه بنبأ العثور على مكان حرملة بن كاهل احد المشاركين الفعالين في قتل الحسين، قائلين له: "أيها الأمير! البشارة! قد اخذ حرملة بن كاهل!". وليس إلا فترة من الزمن وإذا بحرملة مقيد يقف أمام المختار. عندها قال المختار لحرملة "الحمد لله الذي مكنني منك!". ثم قال "الجزار الجزار!". فجاءوا بجزار. ثم أمر الجزار قائلا "اقطع يديه!"، فقطعتا. ثم أضاف "اقطع رجليه!"، فقطعتا. ثم ختم موقفه قائلا "النار النار!"، فأشعلوا نارا ورموه فيه. عندها قال منهال:

- سبحان الله!

- يا منهال! إن التسبيح لحسن، ففيم سبحت؟

أيها الأمير! دخلت في سفرتي هذه منصرفا من مكة على علي بن الحسين. فقال لي "يا منهال ما فعل حرملة بن كاهل الاسدي"، فأجبته "تركته حيا بالكوفة!" عندها رفع يديه جميعا فقال "اللّهم أذقه حر الحديد! اللّهم أذقه حر الحديد! اللّهم أذقه حر النار!".

- أسمعت علي بن الحسين يقول هذا؟

- والله لقد سمعته يقول هذا!

عندها صلى المختار ركعتين. فأطال السجود ثم قام فركب وقد احترق حرملة. وعندما سار منهال إلى جانب المختار، واقتربا من داره قال منهال للمختار:

- أيها الأمير إن رأيت أن تشرفني وتكرمني وتنزل عندي وتحرم بطعامي؟

- يا منهال! تعلمني أن علي بن الحسين دعا بأربع دعوات فأجابه الله على يدي ثم تأمرني أن آكل؟ هذا يوم صوم شكرا لله عز وجل على ما فعلته بتوفيقه[1]

لقد كان مضمون الثأر الذي رفعه المختار إلى مصاف العقيدة السياسية هو الوجه الآخر لما يمكن دعوته بتوبة الانتقام الاجتماعي والأخلاقي. بمعنى أنها التوبة التي استكمل فيها الوجدان المعذب لحركة التوابين وكتلة الضمير الملتهبة للعراق في مجرى عقود من السيطرة الأموية القاسية. من هنا تحول الصراع مع معاقلها إلى محور وميدان شعاره الأساسي. وقد أوكل هذه المهمة إلى إبراهيم بن الاشتر مهمة تنفيذها. وتروي كتب التاريخ كيف أن جيشه المرسل لمقاتلة القوات الأموية بقيادة عبيد الله بن زياد، كانت للمرة الأولى خليطا من العرب والأعاجم (الحمرا). وبغض النظر عن اختلاف وتباين الأرقام، إلا أنها تعكس طبيعة العقيدة السياسية الجديدة التي استطاعت للمرة

[1] كشف الغمة، ج 2، ص 214

الأولى تحويل الصراع الداخلي إلى صراع اجتماعي سياسي صرف قادر على استقطاب مختلف القوى لاعتبارات تمزج بطريقة متميزة الأبعاد الفكرية والعقائدية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية. ومن ثم تصنع سبيكة جديدة في رؤية البدائل[1]. وقد خرج إبراهيم بن الاشتر لقتال الأمويين في يوم السابع من محرم عام 67 للهجرة وشيعه المختار ماشيا على قدميه. وعندما قال له إبراهيم:

- اركب رحمك الله!
- إني لاحتسب الأجر في خطاي معك! وأحب أن تغّبر قدماي في نصر آل محمد!

وهي كلمات لا تخرج إلا من قلب كوني ووجدان صاف! وجدت انعكاسها في مجرى المعارك التي خاضها جيش المختار بقيادة الاشتر مع الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد. وبغض النظر عن الأعداد الكبيرة للأمويين إلا أنهم تعرضوا لهزيمة شنيعة في ما يسمى بمعركة الخازر[2]. وقد كانت كلمة إبراهيم الاشتر غاية في الاختصار. إنها دعت أهل العراق للاقتصاص من قتلة

---

[1] خرج إبراهيم يوم السبت 7 – محرم – 67 في ألفين من مذحج وأسد، وألفين من تميم وهمدان، وألف وخمسمائة من قبائل المدينة، وألف وخمسمائة من كندة وربيعة، وألفين من الحمرا (من غير العرب). وقال بعضهم، كان ابن الاشتر في أربعة آلاف من القبائل وثمانية آلاف من الحمراء (والمقصود بهم الموالي وأمثالهم من "الأعاجم" بسبب بياض أو اختلاف لونهم عن لون السمار المميز لعرب العراق "الجنوبيين".

[2] وهو احد فروع نهر الزاب بين الموصل وأربل (أربيل)

الحسين، بوصفه اقتصاصا مفرقا بين الحق والباطل. بمعنى انه لسان الميزان الأخلاقي الذي حكم طبيعة الصراع من جانب العقيدة السياسية العامة للمختار. فقد خاطب إبراهيم الاشتر جيشه قائلا: "يا أهل الحق وأنصار الدين! هذا ابن زياد قاتل الحسين بن علي وأهل بيته قد أتاكم الله به وبحزبه حزب الشيطان! فقاتلوهم بنية وصبر! لعل الله يقتله بأيديكم ويشفي صدوركم!". وقد كان صدى هذه الخطبة أن صاح الجيش "يا لثارات الحسين!". وقد كان هم الاشتر العثور على عبيد الله بن زياد. وبعد تعرض جيشه للهزيمة عثروا عليه فقطعوا رأسه، واستوقدوا نارا بجسده! ثم بعثوا برأس ابن زياد ورؤوس مرؤوسيه إلى المختار.

وقد وصلت الرؤوس إلى المختار وهو عند الغداء! وهي الحالة التي أرادت، سواء كانت تتطابق بالفعل أم مع الخيال المرغوب، بفكرة الثأر. وذلك لان الصورة المنقولة عن رأس الحسين، انه رمي أمام عبيد الله بن زياد وهو عند الغداء. لهذا قال المختار حالما القي رأس ابن زياد أمامه:"الحمد لله ربّ العالمين! فقد وضع رأس الحسين بن علي بين يدَي ابن زياد لعنه الله وهو يتغدى. وأُتيتُ برأس ابن زياد وأنا أتغدى!". وحالما انتهى من وجبته قام فوطئ وجه ابن زياد بنعله، ثم رمى بالنعل إلى مولىً له وقال له: اغسلها! فإني وضعتها على وجه نجس كافر! ثمّ بعث المختار برأس ابن زياد إلى محمد بن الحنفية وإلى علي بن الحسين. وأرفق ذلك برسالة يقول فيها "أما بعد! فاني

بعثت أنصارك وشيعتك إلى عدوك يطلبونه بدم أخيك المظلوم الشهيد. فخرجوا محتسبين محنقين آسفين. فلقوهم دون نصيبين. فقتلهم رب العباد والحمد لله رب العالمين الذي طلب لكم الثأر، وأدرك لكم رؤساء أعدائكم فقتلهم في كل فج وغرقهم في كل بحر، فشفى بذلك صدور قوم مؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم".

وتكشف هذه الرسالة عن أن مضمون عقيدة الثأر عند المختار هو مضمون المعركة التاريخية والأخلاقية للثأر من الأموية. ومن ثم فهو ثأر "مقدس". لهذا جعل منه، وبالأخص بعد القضاء على الجيش الأموي في معركة الخازر وقتل عبيد الله بن زياد، شعار المعركة الرهيبة للانتقام التاريخي والأخلاقي من كافة رموزها وشخصياتها. بحيث نراه يقول مرة "لا يسوغ لي طعام ولا شراب حتى أقتل قتلة الحسين بن علي وأهل بيته. وما من ديني أترك أحدا منهم حيا"[1]. ليس هذا فحسب بل وسحب موقفه هذا تجاه كل من

[1] هناك تكملة لهذه العلاقة تصورها بعض كتب التاريخ والروايات، تقول، بأنه حالما أرسلت رؤوس ابن زياد وحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع إلى مكة، فإنها وصلت وأدخلت على علي بن الحسين وهو عند الغداء أيضا، فقال علي بن الحسين "أدخلت على ابن زياد لعنه الله وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه فقلت اللّهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد وأنا أتغدى! فالحمد لله الذي أجاب دعوتي!". ثم أمر فرمي به. فحمل إلى ابن الزبير فوضعه ابن الزبير على قصبة فحركتها الريح فسقط فخرجت حية من تحت الستار فأخذت بأنفه. فأعادوا القصبة فحركتها الريح فسقط فخرجت الحية. وهكذا توالت ثلاث مرات، فأمر ابن الزبير بإلقائه في بعض شعاب مكة. وهي صورة رمزية تصور طبيعة الأبعاد الخبيثة والسامة في رؤوس بني أمية وولاتها وقوادها. كما تكشف عن طبيعة المزاج الشعبي والتاريخي وروح الثار الوجداني، واستعادة التقاليد العريقة للعين بالعين والسن بالسن بما في ذلك في أدق نماذجها وحيثياتها.

ساهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة في قتله. بحيث نراه يقول بهذا الصدد "أعلموني من شرك في دم الحسين وأهل بيته". بعبارة أخرى، لقد جعل من دينه قتل من قتل الحسين واشترك فيه. لقد جعل من الثأر المتسامي دينا ودَينا، أي إيمان والتزام.

لقد كان موقفه بهذا الصدد تكملة للانتصار العسكري واستمرارا للمبدأ الأساسي للعقيدة السياسية واختبارا له في نفس الوقت. بعبارة أخرى، إن القضاء على من اشترك في قتل الحسن من بين أهل الكوفة هو استمرار القضاء على الأموية. وهو موقف يمكن أن نستشف منه، بأنه أعتبر كل من ساهم في قتل الحسين شخصا لا ينتمي إلى كوفة العراق. من هنا إشراكه الجميع في البحث عن القتلة والمساهمين والمساعدين عبر إشراك الجيش والجمهور. ووضع ذلك في دعوة متحركة موجهة لأهالي الكوفة تقول "من أغلق بابه فهو آمن إلا من اشترك في قتل الحسين"! وعّجل من تنفيذ هذا الموقف مغامرة "الأشراف" في محاولتهم القضاء عليه بعد مغادرة جيش الاشتر إلى الموصل[1]. لكن دعوته للرجوع السريع من اجل إخماد مغامرتهم قد أدت إلى استفحال هذه الممارسة الراديكالية. وهنا تحول شعار "يا لثارات الحسين" إلى مرشد عمل لكل الأفعال المناهضة للسلطة الأموية. وقد استطاع المختار أن يأسر في اليوم الأول من المعركة التي دارت ضد الأشراف حوالي خمسمائة رجل، قتل منهم

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص 120.

مائتين وثمانية وأربعين رجلا ممن اشترك في معركة الطفّ وأخلى سبيل الآخرين. وبعدها بدأت عملية التفتيش الصاخبة التي أشبه ما تكون بحالة الأفراح التي تصيب الجميع زمن ختان الصبيان. حيث يتحول قطع "الزائدة" المبكي إلى فرح طاغ. وليست هذه الحالة وصفية بقدر ما أنها تتشابه من حيث فاعليتها بالنسبة للجسد والمعنى. فقد كان قطع رقاب الأمويين أشبه ما يكون بالتضحية الضرورية من اجل التطهير! لهذا نرى المختار يتتبع كل حيثيات إلقاء القبض على قتلة الحسين ومتابعة كل الإجراءات الملازمة لإعدامهم النهائي. ففي متابعته للشمر بن ذي الجوشن تتضارب الحكايات، لكنها تسير في نفس الاتجاه، ألا وهو التفنن في القبض عليه وتصفية الحساب معه. فهناك رواية تقول، بان الذين أرسلهم المختار قد أحاطوا ببيته وقتلوه قبل أن يلحق بأصحابه. واكتشفوا ذلك لبرص فيه. وسمع أصحابه التكبير وقائلا يقول "قتل الخبيث! قتله ابن أبي الكنود". ثم ألقيت جثته للكلاب[1]. وفي رواية أخرى تقول، بان المختار طلب شمر بن ذي الجوشن فهرب إلى البادية. لكن أصحاب المختار لاحقوه إلى أن عثروا عليه بعد قتال، فأخذوه أسيرا وبعثوا به إلى المختار فضرب عنقه وأغلى له دهنا في قدر فقذفه فيها فتفسخ ووطئ مولى لآل حارثة بن مضرب وجهه ورأسه. كما تتبع المختار خولي بن يزيد الاَصبحي الذي حمل رأس الحسين. فمسكوه بمساعدة زوجته التي كانت تعاديه منذ جاء

[1] الجزري: الكامل في التاريخ، ج4، ص236. 237.

برأس الحسين. فقتلوه إلى جانب أهله وأحرقوه بالنار. كما أرسل المختار على حكيم بن طفيل الطائي الذي سلب العباس بن علي ورمى الحسين بسهم. كما بعث إلى مرّة ابن منقذ قاتل علي بن الحسين، فأحاطوا بداره، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحه فطاعنهم فضُرب على يده وهرب منهم فنجا ولحق بمصعب بن الزبير، لكن يده أصيبت بالشلل. وقبضوا على ابن انس وكان قد انتزع برنس الحسين، فطالب المختار بقطع يديه ورجليه وتركه يضطرب حتى مات. كما بعث المختار أبو عمرة بطلب عمر بن سعد فأتاه وطلب منه القيام. فعثر في جبة له، فضربه أبو عمرة بسيفه فقتله. وأخذ رأسه فأحضره عند المختار. وعندما قال المختار لابنه حفص بن عمر وهو جالس عنده عما إذا يعرف رأس من هو أمامه، فأجاب حفص "نعم". ثم أضاف "لا خير في العيش بعده". عندها قال المختار لأصحابه "ألحقوه به"، فقتلوه. ثم قال كلمته الشهيرة "هذا بحسين، وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء". بمعنى أن عمر بن سعد بالحسين، وابنه حفص بابن الحسين علي. لكنها معادلة لا تتساوى أطرافها، مع أنها مقبولة بمعايير الثأر. وبلغت هذه الفكرة ذروتها في عبارة المختار القائلة: "والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله".

إننا نقف أمام فكرة ذللت من حيث محتواها الواقعي وغاياتها الكامنة فكرة القرشية. بمعنى أنها ذللت مضمون "السيادة" و"الأشراف" من خلال إرجاعها إلى معاني الروح والمواقف. بحيث حّول هؤلاء "الأشراف" إلى دمية

تافهة وكميات من اللحم والشحم لا قيمة لها ولا معنى غير القتل والحرق والتلف على أيادي أهل العراق. وبالتالي ليست الأساليب الدموية العنيفة والمباشرة والسافرة ولحد ما المثيرة، سوى الصيغة الناتئة لغور الحقد والكراهية المتراكمة من ظلم الأموية واضطهادها الطويل لأهل العراق. كما أن اشتراك الجمهور والموالي في تنفيذها هو التعبير الاجتماعي عن طبيعة الانتقام الأخلاقي والروحي من اجل إتمام تصفية الحساب مع كل أولئك الذين كانوا يجسدون في شخصياتهم وسلوكهم عين التناقض الجوهري مع الفكرة الإسلامية التي يدعون تمثيلها. وهو السبب القائم أيضا في محاولات المختار هدم كل ما له صلة بوجودهم بوصفهم عدما محضا بمعايير الأخلاق وفكرة الثأر المتسامية. من هنا نراه يهدم بيوت الأمويين لكي يزيل أي اثر لهم من ارض العراق. وأورد الدينوري في (الأخبار الطوال) كيف أن المختار طلب من أبي عمرة أن يجمع له العمال ويتتبع دور من خرج لقتال الحسين لكي يهدمها. وكان أبو عمرة عارفا بهم فجعل يتتبعهم في أحياء الكوفة ويهدم ويقتل من وجده منهم. وتتبع المختار في هذه العملية في كل فعل واثر يمكنه أن يبقى على ذكرى قتلة الحسين. بحيث تحول الثأر إلى فكرة شاملة. وهنا كان يكمن السبب الذي جعل المختار يتتبع بمعاقبته حتى من أكل لحم الإبل التي كانت بحوزة الحسين بن علي. فقد بلغ المختار، أن شمر بن ذي الجوشن أصاب مع الحسين إبلا فأخذها. فلما قدم الكوفة نحرها وقسم لحومها بين الناس. لهذا

طالب المختار بإحصاء البيوت التي دخل فيها شيئا من ذلك اللحم. ثم أرسل قواته لقتلهم!

إن بلوغ الثأر درجة الانتقام حتى من أولئك الذين أكلوا لحم ابل الحسين، بوصفها غنيمة المعركة، ليس إلا الوجه الآخر لحقيقة الإخلاص لفكرة الانتقام الأخلاقي والسياسي. بمعنى انه أراد أن يضع الإنسان أمام مهمة التطهير الفعلي في المواقف، انطلاقا من أن الجريمة الأخلاقية أقسى من أن يسامح عليها. وكل تبرير ليس الا سفسطة لا مبرر لها ولا قيمة. فالإنسان إرادة. وحقيقة الإرادة إخلاص للحق. والعدالة فيها أن يكون المرء متجانسا، على الأقل في الابتعاد عن اقتراف الرذيلة وعدم المشاركة فيها. ومن ثم لم يعن تقبل غنيمة الجريمة السافرة سوى الاشتراك فيها وتقبلها بوصفها غنيمة "حق"، بوصفه عين الجرم والجريمة.

لقد كان غلوّ المختار في معاقبة قتلة الحسين الصيغة العملية لغلو السياسة الأخلاقية والأخلاق السياسية. وسوف تطبع هذه الصفة التشيع اللاحق بسبب غلوّ الاستبداد السلطوي وارتزاق اغلب الفقهاء، الذي جعل الحسن البصري يستغرب أن كان هناك فقيها. وذلك لان حقيقة الفقيه بالنسبة له هي فقه القلب. الأمر الذي يعطي لنا إمكانية القول، بان غلو المختار في معاقبة قتلة الحسين والاندفاع بها إلى أشواطها القصوى، ليست إلا الصيغة السياسية لفقه القلب. بمعنى انه أراد أن يضع الإنسان بوصفه وحدة للروح والجسد أمام

محك دائم لاختبار الإرادة بوصفها مسئولية. وبالتالي لم يكن عقابه لأولئك الذين أكلوا لحم الغنيمة المجرمة سوى الصيغة المتشددة لإبراز قيمة المسئولية الروحية والأخلاقية للفرد في مواجهة النفس وتحديها من اجل الحق والحقيقة والعدل والإخلاص. وليس مصادفة أن يعتق المختار عبيد كل من قاتل الحسين. تماما بالقدر الذي شجع العبيد على الانتقام منهم. بحيث نرى كتب التاريخ تعج بالعبارات القائلة، بان العبيد قتلت مواليهم الذين قاتلوا الحسين. ثم أتوا المختار فأعتقهم. وقد كانت تلك هي الخاتمة التي بلغتها فكرة الثأر عندما تطابقت من حيث الجوهر مع فكرة الحرية والأخلاق لها بمعايير العدل والمساواة. واحتوت هذه النتيجة في أعماقها على خطر مميت للقوى المتصارعة الكبرى، الأموية والزبيرية. وبالتالي لم تكن تهادنهما المؤقت، واجتماعهما على محاربة المختار والقضاء عليه، سوى النتيجة الحتمية لهذا التحول العاصف في عقيدة الثأر المختارية.

الباب الثالث

البطولة والمأساة



الفصل الأول

مأساة البديل المتسامي للحرية والمساواة



هرب اغلب أزلام الأموية من ثار المختار أما إلى الشام وأما إلى البصرة، عندما كانت معقلا لعبد الله بن الزبير. وتشير اغلب المصادر المؤرخة لتلك المرحلة، على أن "الأشراف" الذين هربوا إلى البصرة قد لعبوا دورا مهما وكبيرا في تحريض مصعب بن الزبير وتعجيل الحملة التي أعدها للقضاء على المختار[1]. وذلك لان طبيعة الخلاف بين حركة عبد الله بن الزبير وحركة المختار لها جذورها العميقة في التاريخ العائلي والفكرة السياسية والبدائل. وهو خلاف كان مختبئا وكامنا حتى في مجرى العمل المشترك الأول بينهما.

فقد كان عبد الله بن الزبير يكن كراهية مبطنة للبيت العلوي. وتاريخه الشخصي هو تاريخ العداء للإمام علي بن أبي طالب وخلافته. واشترك بصورة فعالة سواء بالسياسة أو بالحرب ضد الإمام علي في معركة الجمل وبعدها. كما أن له تاريخه النفسي المبطن في مجرى صيرورة الخلافة وصعود أبي بكر إلى السلطة وطبيعة الخلاف الشخصي والعائلي بين عائشة وفاطمة من جهة، وبيت أبي بكر وابن أبي طالب من جهة أخرى. غير أن الأحداث التاريخية لها تأثيرها

---

[1] ابن الأثير:الكامل في التاريخ، ج4، ص112.

فيما يتعلق بتليين حدة الخلاف، لكنها لا تقضي عليه. وإذا كان هذا الخلاف قد تحول إلى تباين مرتبط بتباين الموقع الاجتماعي والروحي بين الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فان الأمر اختلف حالما خرج الحسين من مكة وانتهى إلى ما انتهت إليه معركة الطفّ ومقتله. فقد كانت هذه الخاتمة التعيسة مصدر الإثراء السياسي الجديد لعبد الله بن الزبير. لكن أثرها الروحي والمعنوي والتاريخي لم يكن لصالحه. ذلك بسبب صعود الهموم السياسية الخالصة وحب الإمارة المميزة لشخصيته الفردية. وليس مصادفة أن يتوسع تأثيره السياسي الهائل في غضون فترة قصيرة بحيث يرتقي من الناحية الفعلية إلى مصاف الخليفة الشرعي ويستمر بها لمدة تسع سنوات دون أن تترك أي اثر في التاريخ الروحي والمعنوي والفكري للخلافة والإسلام. لقد اندثر كما لو انه لم يكن شيئا. والبقية الباقية هي منطقة "الزبير" بوصفها إحدى أطراف البصرة الرملية! ولا يمكن فهم حقيقة هذا الاندثار دون إدراك طبيعة التماهي بين العراق والتيار العلوي (الشيعي) بوصفه تشيعا للعراق. وقد يكون هو السر القائم وراء التقاء الزبيرية والأموية في الحرب عليه بوصفهما تياران خارجيان على العراق (حجازي وشامي). وهو اثر لا يمكن التخلص منه بالنسبة لشخصيات ترعرعت ضمن تقاليد العائلة والقبيلة وحب الإمارة. لكنه التقاء أصبح ضرورة عندما تحولت فكرة الثأر إلى عقيدة اجتماعية سياسية تحررية. فمن الناحية الشكلية كان ينبغي لها أن تكون عاملا إضافيا مساعدا للحركة

الزبيرية ومفيدا لها ومشجعا، بوصفها حركة القضاء على رجال الأموية. لكننا نرى اندفاع الحركة الزبيرية إلى صدارة المواجهة في الحرب ضد المختار. إذ يكشف هذا الصعود في آن واحد تلاقي الأبعاد العائلية والسياسية والفكرية ضد حركة المختار.

فقد ظهرت الأبعاد الشخصية والعائلية الدفينة التي ترعرع عليها عبد الله بن الزبير حالما استتبت له السيطرة السياسية والتحكم بالإمارة. بحيث ظهر العداء والبغضاء والكراهية العميقة المغروسة في أعمق أعماق النفس واللاوعي. بحيث بلغ به الأمر بعبد الله بن الزبير، كما ينقل اليعقوبي، درجة الامتناع حتى من ذكر الصلاة على النبي محمد في خطبه. وعندما قيل له بذلك أجاب: "إن له أهيل السوء يشرئبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به"!! وهي ممارسة لم تجرئ عليها حتى الأموية. بحيث نراه يدمج في آن واحد لغة الاحتقار عندما يستعمل كلمة أهيل عوضا عن أهل تصغيرا واحتقارا، وتعمد عدم ذكر الصلاة على النبي محمد لأنه جد العائلة العلوية!! كما تنسب إليه حادثة سب الإمام علي من على المنبر، شأن أعدائه الأمويين، بحيث رد عليه محمد بن علي بن أبي طالب في المسجد قائلا: شاهت الوجوه يا معشر قريش! أيقال هذا بين أظهركم، وأنتم تسمعون ويذكر علي فلا تغضبون؟ ألا أن علياً كان سهماً صائباً من مرامي الله أعداءه، يضرب وجوههم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون"!

ومهما يكن من أمر هذه الأخبار القابلة للتشكيك، إلا أن ممارسة عبد الله بن الزبير السياسية تجاه الشخصيات العلوية الكبرى آنذاك، كما توردها كتب التاريخ، تشير إلى احتمال هذه السلوك وتأكيده. إذ تنقل كتب التاريخ، كيف انه أراد إجبار محمد ابن الحنفية، وعبد الله بن عباس، وأكثر من عشرين رجلا آخرين من بني هاشم على المبايعة فامتنعوا. عندها حبسهم في حجرة زمزم. وخيرهم بين الإقرار به والمبايعة له أو إحراقهم بالنار!! وقد أنقذهم المختار بعد إرسال قوة عسكرية ضاربة بقيادة أبي عبد الله الجدلي[1]. لكنه أعاد الكرة عليهم بإبعادهم بعد أن قضي على حركة المختار. حيث أخرجهم من مكة، أو خرجوا لحالهم، والأمر سواء لأنه كان نتاج السياسية الغاشمة لعبد الله بن الزبير. فقد اضطر محمد بن الحنفية للخروج إلى ناحية رَضوى، وعبد الله بن عباس إلى الطائف حيث توفي فيها عام 68 للهجرة.[2]

---

[1] ينقل لنا الجزري في تاريخه (ج4، ص236-237) صورة درامية تنتهي بنهاية سعيدة، لكنها متوجة ببقايا الألم من عذاب الزبيرية المقبل بالنسبة لحركة الاحتجاج المرتبطة بتراث الأئمة العلويين. إذ نقرأ فيها عن كيفية إرسال المختار ثمانمائة راكب من أهل القوة، حتى دخلوا المسجد الحرام ومعهم الرايات وهم ينادون بشعار "يا لثارات الحسين"! بحيث انتهوا إلى زمزم. وقد أعدّ ابن الزبير الحطب ليحرقهم، وكان قد بقي من الأجل يومان، فكسروا الباب، ودخلوا على ابن الحنفية يستأذنون القتال وهو يقول: إني لا أستحل القتال في الحرم. فخافهم ابن الزبير وتركهم. وخرج محمد بن الحنفية ومن معه وهم يسبّون ابن الزبير ويستأذنون محمدا فيه فأبى عليهم. فاجتمع في الشعب أربعة آلاف رجل فقسّم بينهم المال. ونقل الجزري أن ابن عباس كان أيضا محبوسا مع محمد الحنفية فأزال جيش المختار الضرر عن كليهما. ولما قتل المختار قوى عليهما ابن الزبير فخرجا إلى الطائف. ولما وصل ابن عباس إلى الطائف توفي به وصلى عليه ابن الحنفية.

[2] اليعقوبي: كتاب التاريخ، ج2، ص261-262.

إن الأبعاد الشخصية هي الوجه الشخصي للفكرة السياسية ومستوى تأسيسها. وليس اعتباطا ألا تندفع اغلب شخصيات بني هاشم إلى الانتقام من أعدائها. وذلك لان سلوكها الشخصي كان محكوما بالفكرة، والفكرة بمستوى تأسيسها. وضمن هذا السياق، يمكن فهم حوافز العداء الذي أشراك الحركة الزبيرية والأموية في مواجهة المختار. بمعنى أنها أيضا محكومة بالفكرة ومستوى تأسيسها. بمعنى أنها فكرة اقرب إلى النفسية منها إلى العقلية. وذلك لان بدايتها ونهايتها السلطة. من هنا ليس تأسيها سوى الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها. وهي فكرة مؤسسة بمعايير الغريزة. من هنا إمكانية اندثارها السريع رغم جبروتها الظاهري. وهو السبب الذي عادة ما يجعلها مفتقدة لفكرة الاحتمال والمشاريع التاريخية الكبرى. من هنا تحسسها الشديد تجاه فكرة الاحتمال المتنوع والبدائل الجلية. وبما أن حركة المختار كانت تحتوي في أعماقها على بدائل متنوعة، بسبب إعلانها وإعلائها فكرة الحق والمساواة من هنا وضوح الموقف وجزميته الجلية عند الأموية والزبيرية. وقد كان عبد الله بن الزبير اشد "تجانسا" بهذا الصدد وذلك لكونه يسعى للسلطة، ومنافسا جديدا. من هنا كرهه للمنافسة. كما أن حركة المختار باستيلائها على العراق تكون قد أفقدت قدرته على التطور والتوسع اللاحق. فالعراق هو قاعدة الخلافة آنذاك. إضافة إلى ما في حركة المختار من تحد اجتماعي جوهري للزبيرية والأموية. وبرز هذا التحدي من خلال القضاء على "الأشراف" وإشراك "المستضعفين"

من عوام المجتمع والموالي، وتحرير العبيد. ليس ذلك فحسب، بل وإشراكهم الفعال في الممارسة السياسية للدولة باعتبارهم رصيدها الاجتماعي والعسكري المباشر. وقد كان ذلك التحدي الأكبر للأموية والزبيرية. فقد كان عبد الله بن الزبير نفسه مالكا كبيرا للعبيد والغلمان! كما كان بخيلا! وهي صفات لا يمكنها أن تطيق فكرة الحرية أو تحكم العبيد بالأشراف! من هنا يمكن فهم محاولات عبد الله بن الزبير السريعة، حالما رأى تسارع وتوسع التأثير الهائل للمختار في العراق، إلى استبدال ولاته بولاة جدد، والاعتماد على نصيب العائلة. من هنا تعيينه لأخيه مصعب واليا على البصرة، وحصر مهمته في القضاء على حركة المختار من خلال توظيف كل موارد العراق المتاحة آنذاك لهذه المهمة. وقد أنجزها مصعب بن الزبير بطريقة لا تخلو من الغدر والخيانة.

وعندما نتأمل أخبار سقوط المختار ومقتله، فإننا نستطيع التوصل إلى انه لم يفاجأ بظهور مصعب وقواته في الكوفة. ومن الصعب الآن القول، ما إذا كان لإبراهيم الاشتر ضلعا في ذلك أم، غير أن خذلانه ومحاصرته في قصر الولاية لأربعة أشهر دون مساندة تذكر تثير عددا من الأسئلة. لكنها محتملة ضمن معايير الصراع السياسي الذي لم تتأسس فيه بعد منظومة القيم والمبادئ التي كافح المختار من اجلها. لقد قاتل بالقدر الذي كانت تحتمله قواه الخاصة، لاسيما وانه كان منذ البدء، شخصية متراكمة بقواها الخاصة، أي فردانية أصيلة لم ترتق بحكم العائلة ولا اللقب ولا أيما شي آخر، باستثناء الوجدان الخالص

للحق والمساواة والدفاع عنها. وعادة ما يحترق هذا النوع من الشخصية في عمل بطولي لكي يكون رمادها قادرا على تسميد الأرض الروحي للأجيال وتعمية الأعداء. وهي الصورة الأدبية التي واجهها في معركة حروراء واضطراره للانسحاب والاعتصام في قصر الإمارة، إلى أن خرج "يطالب بالموت"! إذ تعكس هذه الكلمة حقيقته، التي واجه بها أيضا لحظاته الأخيرة عندما قال لأصحابه "إن الحصار لا يزيدنا إلا ضعفاً، فانزلوا بنا نقاتل حتى الليل ونموت كراما"[1].

وكان مقتله عام 67 للهجرة خاتمته الفعلية، مثل حياته وكفاحه وصعوده، تعبيرا وعبيرا عن معاني البطولة والفروسية الفذة، والقيم الأخلاقية والروحية الرفيعة، والمبادئ الاجتماعية المتسامية. لهذا كان "انتصار" مصعب بن الزبير عليه عملا اقرب إلى الهزيمة الروحية والمعنوية. والقضية هنا ليست فقط في انه فعل اتسم بقدر كبير من الغدر والخيانة، وبل ولما فيه وآثاره من تعميم للرذيلة وتسميم لقيم العدالة والمساواة. من هنا نفسية التشفي والانتقام التي حكمت سلوكه، بما في ذلك مع زوجة المختار! وهو السبب الجوهري في خراب الأسس المعنوية للحركة الزبيرية وانهيار قوامها الاجتماعي في العراق. لهذا سرعان ما تعرضت للهزيمة أمام القوات الأموية، وبالتالي اندثار أثرها التام من ذاكرة العراق ووعيه.

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص288.

فالتيارات السياسية وشخصياتها الكبرى ليست ذكرى، بل اثر. والفرق هائل بين الذكرى والأثر. انه كالفرق بين حركة المختار وشخصيته من جهة، وحركة عبد الله بن الزبير وشخصيته من جهة أخرى. فإذا كانت ذكرى عبد الله بن الزبير في القضاء على المختار قد اقترنت بشخصية أخيه مصعب الذي طالب أهل البصرة بان يدعوه بالجزار(!)، فان أثره في التاريخ العراقي اضمحل كما تضمحل قيمة الجزار بعد الذبح! بينما بقي المختار مختارا في الوعي التاريخي العراقي والإسلامي بوصفه جزء من اختيارهم الأخلاقي للحق والفضيلة.

لقد كان القضاء على المختار وأتباعه من جانب مصعب بن الزبير الخطوة التاريخية الأولى لاضمحلال مرحلة وجيل، وصعود فكرة ومنظومة. فقد كان مصعب كأخيه عبد الله بن الزبير، خطوة طارئة في وجود الخلافة، لأنه لا باعث فيها لغير استخلاف السلطة، بينما كان اختيار المختار فعلا حرا ضمن مسار الفكرة المتنامية في ارض العراق وتاريخ الكوفة، أي المنطقة التي تداخلت فيها وتناسخت مختلف القيم والمفاهيم والأجناس. وبالتالي المنطقة القادرة على أن تكون فكرة، والفكرة القادرة على أن تصبح منظومة، والمنظومة القادرة على أن تنمو في تاريخ العقل النظري والعملي بوصفها السبيكة الحية لوحدة العقل والوجدان. من هنا لم تكن عبارة مصعب بن الزبير التي أطلقها على أتباع المختار، الذين قتلهم بعد نكران العهد والوعد بالأمان، بأنهم

"سحرة كفرة" سوى الصيغة المقلوبة للحقيقة. بمعنى إنها عبارة تحتوي من حيث حفرياتها الباطنية على الهالة المتوهجة للحركة المختارية في قلوب وضمائر الأتباع للدرجة التي جعلتهم يكفرون بسلطة الزبير وبني أمية وأمثالها. وهو تفسير لا تأويل فيه، وذلك لما في أفكار المختار من مبادئ متراكمة اقتربت من حد المنظومة. بمعنى أن المختار استطاع للمرة الأولى بعد موت الإمام علي بن أبي طالب أن يعيد حركة التاريخ الروحي بمعايير الرؤية السياسية. ويجد لكل تاريخها المتراكم في قلوب وضمائر العراق والكوفة مخرجا عبر الأفكار التي بلورها في مجرى صراعه السياسي والاجتماعي والفكري.

فمن الناحية التاريخية المترافقة مع نموه الشخصي، نرى بان أفكاره المتكاملة في مشروعه السياسي اللاحق، لم تكن وليدة الصدفة. بمعنى أنها كانت تتراكم من تداخل تراث التيار العلوي وتأمل تجاربه، أي من تداخل التاريخ والرؤية النظرية. ولا يغير من حقيقة هذه النتيجة تلك الصيغ الأسطورية المشبعة بالجبرية المتسامية التي حاولت أن ترى في شخصيته نتاجا لالتقائه حالما كان صغيرا بالإمام علي بن أبي طالب، أو "لأخذه العهد" منه وأمثالها. فهي صيغ يمكن فهم حوافزها ضمن تقاليد الدفاع المستميت عن هجوم أكثر استماتة لتشويه سمعته التاريخية بعد أن اكسب التيار العلوي تجاربه التاريخية السابقة طابع النزعة الهجومية. بمعنى انه كان قد ذلل النزعة الحسنية ودفع بالصيغة الحسينية إلى مداها الأوسع من خلال وضعها في فكرة قائمة

بذاتها وليس تأويلا محتملا لتوجه شخصي. ونعثر على هذه الصيغة في تلك الكمية الشحيحة من المعلومات التي لم يستطع تاريخ السلطة اللاحق نثرها في زوايا النسيان. إذ ينقل لنا ابن نما الحلي في رسالته (أخذ الثار)، ما اسماه بالبشارة، التي كانت تراوده من مهمة إعادة الاعتبار لتاريخ الحق المنتهك من جانب السلطة. ووضع هذه "البشارة" في إحدى رسائله لأصحابه حالما كان سجينا، بعد مقتل الحسين. وليست هذه "البشارة" في الواقع سوى رسالة سياسية موجهة إلى شيخ حركة التوابين اللاحقة، سليمان بن صرد. وفيها نقرأ ما يلي: "أما بعد، فإن الله أعظم لكم الأجر، وحطّ عنكم الوِزر بمفارقة القاسطين وجهاد المُحلّين. إنكم لن تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم حسنة. فابشروا! فإني لو خرجت إليكم جرّدت فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم بالسيف بإذن الله، فجعلتهم ركاما، وقتلتهم فردا وتوأما. فرحّب اللهُ بمن قارب واهتدى. ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى. والسلام عليكم يا أهل الهدى".

وعندما نضع هذه "البشارة" ضمن سياقها التاريخي، فإنها لا تحتوي على ما يمكنه أن يكون وضعا أو اصطناعا فيها. بمعنى أنها تسير ضمن سياق تطوره التاريخي بوصفه شخصية سياسية. ومن الممكن تتبع ملامحها الدقيقة السابقة لظهوره المستقل، كما تصورها الرواية التاريخية التي تتحدث عن استلامه جوابا على رسالته السابقة. وفيه نقرأ ما يلي:"قرأنا كتابك! ونحن

حيث يسّرك، فإن شئت أن نأتَك حتى نخرجك من الحبس فعلنا!". وجعله هذا الجواب يقول لهم "لا تفعلوا هذا! فإني أخرج في أيامي هذه". إذ نرى في هذه العبارة إصرارا ودهاء سياسيا للخروج من السجن. مع ما فيه من تحد ورغبة في استكمال صراعه السياسي. وحتى في حال افتراض كون هذه "المراسلات" جزء من حبكة الخيال المروي من اجل إعادة رسم ما كان قبل السجن وبعده من اجل معرفة سر وبواعث سلوكه اللاحق، فإنها لا تتعارض مع الحقيقة. فالخيال المروي هو أيضا واقع فعلي حالما تكون ممارسات الشخصية السياسية اللاحقة تعبيرا وتجسيدا نموذجيا عما فيها من مواقف وقيم. إذ إننا نكتشف في الراوية قدر يتطابق بصورة كاملة مع ما في "الخيال المحبوك". والعلم التاريخي لا يخلو من هذه القدرة على وضع ما لم يضعه رجل الفكر والسياسة عن تاريخه الشخصي. وذلك لان الإبداع والعمل هما مظهران لحياة شخصية وباطنية قد تكون مجهولة أو مستترة عن اقرب الناس. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار إن ما تورده الرواية لا يختلف عما هو معلوم ومشهور وموثق من أحداث تاريخية تستجيب للمبادئ أو القواعد المعلنة. ويشير هذا التطابق أولا وقبل كل شيء إلى ما يمكن دعوته بثبات واستمرارية ووضوح الرؤية، بوصفها مكونات لا يمكنها الظهور فجأة أو أن تكون مجرد رد فعل عابر.

فالمواقف والمبادئ التاريخية الكبرى عادة ما تكون نتاجا لتأمل عميق للتجربة الفردية والاجتماعية والتاريخية. وهو تأمل يمكن رؤيته في المبادئ الفكرية والسياسية التي وجدت صيغتها الأولية في الرسالة – البشارة المشار إليها أعلاه. إنها تحتوي على بعض مبادئ الفكرة المختارية، وبالأخص مبدأ "جهاد المحلّين"، أي الصراع ضد أولئك الذين يحللون المحرمات ولا يتمسكون بالقانون والحق. ففي هذا المبدأ تنعكس ملامح الشخصية، تماما بالقدر الذي يرتقي بذاته إلى مصاف الفكرة المجردة. ومنهما جرى تراكم مكونات الفكرة المختارية بوصفها منظومة محددة بمعايير الرؤية السياسية. إذ نعثر في رسالته المذكورة أعلاه على عبارتين دقيقتين بهذا الصدد تربط فكرة الجهاد من اجل الحق بقاعدة العمل من اجلها، ووضعها في أساس ما يسعى إليه بوصفها قاعدة كيانه الشخصي. وهي فكرة جلية في العبارة القائلة "لن تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة، إلا رفع الله لكم بها درجة"، و"إني لو خرجت إليكم جرّدت فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم بالسيف". بعبارة أخرى، إن كل نفقة ينفقها المرء، وكل فعل يذلل عقبات الوصول إلى الغاية، وكل خطوة عملية بهذا الصدد، هو ارتقاء في مصاف الحق. لكنه ارتقاء قطعه في أعماقه بالشكل الذي جعل من حياته اللاحقة فيما لو خرج من السجن مجرد استمرار وتحقيقا له. وهي النتيجة المستبطنة في سر صعود المختار وقيادته للحركة السياسية المناهضة للأموية والزبيرية. كما أنه استبطان

يعكس شخصية المختار المتجانسة في رفع المواقف العملية الكبرى إلى مصاف المبدأ. وحالما يجري دمجها في العلم والعمل، حينذاك تصبح جزء من منظومة الفكرة، أي كل ما نراه في شخصيته السياسية، وعبرها في منظومته الفكرية بعد أول محاولات لتجميع طاقة الاحتجاج حوله.

وقد رسم المؤرخين بطرق مختلفة طابعها النموذجي في تلك الرواية المختلف حولها، والمتعلقة بكسب تأييد محمد بن الحنفية أو الخروج باسمه. وهي علاقة لا يمكن التشكيك بصحتها، لكنها ليست بالضرورة مرفوعة إلى مصاف "الاتفاق الباطني"، بحيث يكون المختار الصوت الناطق، وابن الحنفية الصوت الصامت. وذلك لان علاقة الناطق بالصامت والظاهر بالباطن لم يجر تأسيسها آنذاك بعد بهيئة منظومة فكرية، كما أنها لم تتخذ آنذاك بعد هيئة المؤسسة. لكن حياة المختار ونشاطه وصراع ومقتله ساهم في تسريع اغلب مكوناتها، باعتباره الصوت الأول والظاهر للتيار العلوي من خارج "آل البيت"، أي أن رجوع المختار هو الأول في سلسلة الحركات الشيعية الكبرى الذي حاول أن يعيد حركة التاريخ الروحي بمعايير الرؤية السياسية. من هنا يصبح الرجوع إلى محمد بن الحنفية رجوعا إلى سلسلة التاريخ الروحي العلوي عبر شخصياته القادرة على العمل بمعايير السياسة ومتطلباتها. من هنا إمكانية ونموذجية الصيغة المروية عنه من انه بعد علمه بان جماعة من الشيعة كانت تشكك بصحة ادعاءه القائل بحصوله على تأييد محمد ابن الحنفية ومباركته لما

يقوم به وخروجهم إليه للتأكد، قال "إن نفيرا منكم تحيّروا وارتابوا، فإن هم أصابوا أقبلوا وأنابوا، وإن هم اعترضوا فقد خسروا". وعندما رجعوا من محمد بن الحنفية، استفسر قائلا "ما وراءكم؟ فقد فتنتم وارتبتم؟!. وعندما أجابوه "أمرنا بنصرتك" طالب بجمع الأتباع وخاطبهم "يا معشر الشيعة! إن نفرا أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئتُ به، فخرجوا إلى إمام الهدى والنجيب المرتضى وابن المصطفى المجتبى[1]. فعرّفهم إني ظهيره ورسوله، وأمركم بإتباعي وطاعتي".

[1] المقصود بهذه النعوت زينَ العابدين علي بن الحسن.

الفصل الثاني

السياسة والروح — منظومة الحرية والنظام

إن استظهار الباطن الروحي في مواقف سياسية علنية كانت من حيث الجوهر التعبير النموذجي عن تراكم شخصيته السياسية والفكرية. ووجد هذا الالتقاء انعكاسه في شعاره الشهير "يا لثارات الحسين". إذ عكس هذا الشعار أولا وقبل كل شيء تاريخ المختار وشخصيته الباطنية والظاهرية. بمعنى انه جسّد فيه رؤيته الفكرية وسلوكه السياسي. بحيث جعل منه أسلوب تحقيق المبادئ الكبرى المتعلقة بالرجوع إلى القرآن والسنّة ومنهما إلى حقوق المستضعفين. وبالتالي، فان الالتقاء بالتشيع هو الصيغة الفردية والتاريخية والسياسية لمسار الروح الباحث عن نموذج امثل لوجود البشر والدولة في العراق آنذاك.

فقد كان التشيع النقيض الروحي السياسي والعقائدي للأموية بوصفها استبدادا وخروجا على منطق الحق والعدالة، أي الصيغة المثلى لتمثل وحدة العقل والوجدان. فالتشيع آنذاك لم يكن مذهبا بقدر ما كان مرجعية هلامية لأفكار الحق والعدل والنزعة الإنسانية. من هنا عنفوان الوجد والوجدان فيه. فالتشيع وجدان، أو انه الصيغة العراقية للوجدان العارم. وهي حالة يدركها

ويحسها عرب العراق الأصليين، أي ذوي الأصول التاريخية المرتبطة بكامل صيرورته وكينونته الثقافية والروحية. إذ تراكمت عبرهم وانتقلت كل حيثيات الموقف من النفس والآخرين، والذي لعبت فيه مآثر آل البيت العلوي دورا قد يكون الأكبر والأكثر جوهرية بالنسبة لتحديد نمط وطبيعة الشخصية النفسية والوجدانية. ويمكن رؤية ذلك في سحنة أهل المدن والأرياف وابتساماتهم ونكاتهم وأغانيهم وعاداتهم وتقاليدهم ولباسهم وأذواقهم وشعرهم الشعبي وإبداعهم الفكري والروحي الهائل، باختصار كل ما يحدد هوية العراقي الأصيلة. وقد لعب مقتل الحسين دورا هائلا في شحذ أبعادها الوجدانية، بحيث يصعب توقع تجاوزه فيما يبدو في يوم من الأيام، شأن أساطير هوميروس بالنسبة لليونان.

وقد صنعت هذه المقدمة صنعت شخصية المختار، ومن ثم حددت في مجرى مواقفه السياسية أسلوبه في العمل، كما نعثر على تعبيره الفكري الأول في أول خطبة سياسية عامة له من موقع "الشخصية المؤثرة" في الأحداث، أي تلك التي تفتحت فيها كل الكوامن العميقة بوصفها حقيقة الشخصية السياسية. ففي أول خطبة له في مسجد الكوفة قال: "الحمد لله الذي وعد وليه النصر، وعدوّه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر وعدا مفعولا وقضاء مقضيا! وقد خاب من افترى! أيها الناس! إنا رفعت لنا راية، ومدّت لنا غاية. فقيل لنا في الراية إنّ اِرفعوها، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تعدوها. فسمعنا دعوة

الداعي ومقالة الواعي". ثم ضمنها مبادئ حركته السياسية وانتهى فيها بعبارة "فلا والذي جعل السماء سقفا محفوظا والأرض فجاجا سبلا، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب أهدى منها!".

إننا نرى في هذه الخطبة الصيغة العملية الدقيقة لرؤية النسبة الضرورية بين الوسيلة والغاية، وبالتالي بين الأبعاد العملية الآنية والبعيدة المدى. وهي أبعاد مترابطة بفكرة انتصار أولياء الحق بوصفه وعدا أبديا. وان الافتراء الممكن والمحتل من جانب السلطة ومرتزقتها عرضة للزوال. وان البديل هو وحدة الراية والغاية، أي الشعار العملي المحكوم بغاية كبرى على قدر الهموم المحتملة فيها نسعى إليه. وإن ما يسعى إليه هو استعادة حية للصيغة السياسية المثلى في العلاقة بين الأمة والأئمة، بين رجال الدولة والدولة، بين الحاكم والمحكوم. ووضع هذه الفكرة في خاتمة خطبته عندما اعتبر مبايعة أهل الكوفة إياه "أفضل بيعة بعد بيعة الإمام علي". إذ تتعدى هذه المقارنة حدود العلاقة بالسلطة إلى آفاق العلاقة بالتاريخ الواقعي ونموذجه الأمثل في الدولة. فقد كانت بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة، الصيغة الشرعية والتلقائية الوحيدة المرتبطة باندفاع الأمة بلا إكراه. بمعنى أنها انطلقت من مساعي الأمة لتحكيم إرادتها في الاختبار والاختبار. فقد ذللت هذه الصيغة تاريخ النخبة المختبئة والشورى البدائية لعثمان. وذلك لان المبايعات الإسلامية السابقة واللاحقة كانت من حيث حقيقة محتواها مبايعات إكراه. فقد كانت بيعة أبي بكر نتيجة

الصدفة وفلتة الاتفاق المحترف لنخبة لها وزنها التاريخي والروحي والعائلي والقبلي. بينما كانت بيعة عمر هي "اجتهاد سياسي" فردي صرف لا يقلل مما فيه من رؤية تتسم بفراسة إنسانية وسياسية وتاريخية عظيمة لكنه يتسم بقدر كبير من المغامرة وابتعاد عن فكرة المبايعة بوصفها مؤسسة اجتماعية دولتية. بينما كانت الشورى التي اختارت عثمان هي النتيجة المترتبة على ما في فعل أبي بكر، بمعنى الابتعاد عن الأمة ولكن بصورة موسعة نسبيا. وفيها كان يكمن سر المؤامرة والمغامرة، التي انتهت إلى تخريب الأسس الأخلاقية والشرعية لفكرة الإمامة والخلافة. وذلك لأنها كانت تحتوي على كل تراكم الخراب المادي والمعنوي في بنية الدولة التي شكلت الأموية استمرارها العائلي والقبلي والنفسي والذهني. فإذا كانت بيعة مبايعة عثمان مؤامرة، فإن مبايعة معاوية هي خداع وغدر وخيانة وقتل وشراء الذمم. ووجدت هذه المقدمة حصيلتها الفعلية في مبايعة يزيد بوصفها امتهانا واحتقارا لكل الأعراف والقيم الشرعية، بحيث كانت اقرب إلى مبايعة النخاسة! وقد وقف المختار أمام هذه الخاتمة. وفيها ينبغي البحث عن فكرته التي سعت إلى استخلاص التطابق المعقول والضروري بين مبايعته من قبل أهل الكوفة ومبايعة الأمة للإمام علي بن أبي طالب. فهي المبايعة الوحيدة التي نبعت من صميم الأمة وبإرادتها بوصفه اختيارا يحتوي في أعماقه على إقرار بضرورة التحقيق التاريخي للعهد الأبدي القائم في انتصار الحق. وهذه بدورها ليست إلا الصيغة المعقولة آنذاك

والمتفائلة بالحق. ووجد هذا التفاؤل تعبيره في المبادئ الخمس الكبرى التي وضعها في عبارة واحد تقول ""تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحليّن، والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم". ذلك يعني إننا نقف أمام مبادئ تشكل بمجموعها منظومة واحدة. فالمبدأ الأول هو مبدأ المبايعة على أساس القرآن والسنة، بمعنى ربط شروط المبايعة للحكم بالشريعة الإسلامية (القرآن وسنّة النبي محمد فقط). وهو مبدأ كان يحتوي في أعماقه على فكرة الرجوع إلى الأصول الكبرى. والمبدأ الثاني هو مبدأ الاقتصاص من قتلة آل البيت بوصفها جريمة تاريخية وأخلاقية، على أن يكون الاقتصاص جهادا دائما مفتوحا ضد كل أولئك الذي احلوا المحرمات (الحقوق والواجبات) وجعلوا من انتهاكها أسلوبا لوجودهم. ووجد هذا المبدأ تعبيره السياسي فيما أسميته بعقيدة الثأر الشامل. والمبدأ الثالث هو مبدأ المساواة المقيدة بالحق عبر الدفاع عن حقوق المستضعفين بوصفهم عماد الأمة وقاعدتها وقوتها الضرورية. ورابعا هو مبدأ شرعية القوة ضد القتلة والمجرمين والتزام السلام مع المسالمين، وأخيرا المبدأ القائل، بأن علاقة الولاة بالمجتمع هي علاقة موزونة بالعهد المشترك بينهما ومعقودة بالتزامهما بجميع مبادئه العامة.

وعندما ننظر إلى وحدة هذه المبادئ بمعايير التاريخ السياسي، فان عماد المنظومة الفكرية يقوم دون شك على المبدأ الثالث والخامس، أي المبادئ التي

تحدد طبيعة السلطة السياسية وعلاقتها بالمجتمع، ومن ثم طبيعة برنامجها الفعلي بالنسبة لآفاق التطور التاريخي. فقد شكل مبدأ المساواة المقيدة بالحق عبر الدفاع عن حقوق المستضعفين بوصفهم عماد الأمة وقاعدتها وقوتها الضرورية شهيق الحركة المختارية، تماما بالقدر الذي شكل مبدأ وزن علاقة الولاة بالمجتمع بميزان العهد المشترك زفيرها. الأمر الذي جعل من حياة الحركة مخاطرة محدقة بكل حيثيات وجودها، بسبب النوعية الجديدة لهذين المبدأين. كما سبق وان واجهه الإمام علي بن أبي طالب قبله بعقود قليلة. فقد تكالبت قوى "الأشراف" القديمة والجديدة بكل ما فيها من شراسة وانحطاط معنوي للصراع ضد مبدأ المساواة ووزن العلاقة بين الإمام والأمة (وليس بين الراعي والرعية) بمعايير العهد الأبدي للحق. وهي عبارة تفوح منها رائحة الميتافيزيقيا الخالدة للعقل النظري والعملي، أي للعقل الأخلاقي. من هنا تسرب الروائح النتنة للدس العقائدي والإيديولوجي على المختار بوصفها الصيغة المتممة لسب وشتم الإمام علي من على المنابر.

إننا نعثر في كل الصيغ المتنوعة للدس والاتهام وغيرها من أشكال التشويه المتعمد على الوجه الأيديولوجي للسلطة. ومن ثم يمكننا من خلالها رؤية الأبعاد الواقعية لحركة المختار ومبادئه التي أثارت أكثر من غيرها قلق السلطة وإيديولوجيتها "السنية" الرسمية. وليس مصادفة أن تجري محاولة الترويج لفكرة الطابع الغوغائي (عبر إبراز دور الموالي وطابعها الأعجمي)

والكاذب (ادعاء النبوة) في شخصية المختار. إذ يعّبر هذا الترويج عن الوجه الدعائي والأيديولوجي المشوه للسلطة ضد مبدأ المساواة المقيدة بالحق عبر الدفاع عن حقوق المستضعفين ومبدأ وزن علاقة الولاة بالمجتمع بميزان العهد المشترك. وذلك لما في مبدأ العدل والمساواة من طاقة على صنع الحرية، ولما في مبدأ العهد المشترك من قواعد وأصول تقيد علاقة الإمام والأمة بعقد مشترك. بعبارة أخرى، إن مضمون الفكرة السياسية للمختار كان يقوم من حيث الجوهر في تأسيس وحدة الحرية والنظام من خلال إشراك المجتمع وقواه العامة في عقد مقيد بالقانون. وليس اعتباطا أن يكون تحرير العبيد من أولويات سياسة المختار، على الأقل ما يتعلق منه بعبيد أولئك الذين قاتلوا الحسين. ومع أنه فعل لم يكتمل، لكنه كان يحتوي في أعماقه على إشارة مقلوبة لكنها واقعية عن أن للحرية ثمنا. لكن تحرير العبيد الذي قام به المختار كان اقرب إلى "المصادرة" السياسية. ومن ثم كان يحتوي على "انتقام" و"ثأر" أخلاقي سياسي اجبر "أشراف" الأمس على تقديم "زكاة" بشرية و"أضحية" اجتماعية لتطهير النفس من "الشرف" المزيف، أي من حالة العيش بهيئة كيانات طفيلية. وهو "تطهير" لم يكن بإمكان الأشراف القيام به. من هنا انجازه من جانب المختار بالقوة والعنف. وفي هذا يكمن سر الخيال الخصب "للأشراف" والسلطة لاحقا للانتقام منها من خلال ابتداع صورة ملفقة عن كيفية استفادته من "فكرة" المغيرة بن شعبة المتعلقة بأسلوب استغلال العامة

والجمهور. إذ تحكي لنا إحدى الروايات عن مسايرة المختار للمغيرة بن شعبة أيام ولايته الكوفة من جانب معاوية. وعندما وصلا إلى السوق، التفت المغيرة إلى المختار وقال له"

- يا لها من غارة ويا له جمعا! أني لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق لاتبعوه ولاسيما الأعاجم الذين إذا ألقى إليهم الشيء قبلوه!
- وما هي يا عمّ؟!
- يستأدون بآل محمد!.

بعبارة أخرى، أن المختار استعاد هنا "فكرة" المغيرة ومن ثم خزنها في ذاكرته بوصفه الدرس السياسي الأكبر الذي نعثر عليه في تاريخه اللاحق!! وهي حكاية جلية التلفيق، غير أن مضمونها الفعلي يقوم في تصويرها للمخاوف التي أثارها المختار في مبادئه السياسية. بمعنى استعماله شعار "يا لثارات الحسين" بوصفه الأسلوب الذي يمكن من خلاله بلوغ السيادة والسؤدد، وبالأخص حالما يجري ذلك بين الأعاجم!!

إننا نرى فيها مظهر العداء السياسي بوصفه الوجه الآخر لقوة الشعار السياسي وقواه الاجتماعية التي أسندت المختار. وهو إسناد صنع السيادة والسؤدد فيه، ولكن بوصفهما أساليب تحقيق الأفكار الجوهرية الكبرى التي أحجمت أيديولوجيا السلطات اللاحقة بالإشارة إليها، والمقصود بذلك فكرة التحرير والعقد الاجتماعي بين الإمام والأمة. وذلك لان استمالة "الأعاجم"

(الموالي) والفئات الاجتماعية غير الطفيلية من فلاحين وحرفيين وعبيد من جانب المختار كانت مرتبطة بفكرة الثأر من الأشراف. فقد كان هذا الثأر يحتوي في أعماقه بالضرورة على فكرة التحرير. وذلك لان أدواته هي عين مواده. من هنا إعتاق المختار لأولئك العبيد الذي قتلوا أسيادهم ممن شارك في القتال ضد الحسين. لقد جعل للحرية ثمن. وهي خطوة روحية وعقلية واجتماعية وأخلاقية رفيعة. انه لم يعط حرية بلا ثمن. فالحرية ليست هبة تعطى فتؤخذ، بل هي أسلوب الوجود الفردي والاجتماعي للبشر. أما ضمن منظومته الفكرية السياسية العامة، فإنها كانت تتراكم بالضرورة بوصفها عناصر مكونة لمبدأ الدفاع عن المستضعفين. واقتران ذلك بمبدأ المساواة. من هنا تقسيمه للفيء على أساس المساواة. وبدأ بالقضاء على ملكية الأشراف للأرض.

مما سبق يتضح ما في منظومة المبادئ المذكورة أعلاه من رؤية سياسية جديدة تتعارض وتتضاد مع ما هو سائد آنذاك من نماذج الحكم في العراق (الزبيرية) والشام (الأموية). كما أنها تتميز بقدر من التماسك الداخلي من حيث جمع وترتيب الأفكار العامة والخاصة المتعلقة بنظام الحكم وطبيعة الشرعية وقواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وساهمت هذه الحصيلة في تأسيس نمط جديد للعلاقة بين المثقف والسلطة. ولم يكن هذا بدوره معزولا عن تراكم الوحدة الجريئة للعقل النظري والعملي.

فقد جسّد المختار في شخصيته الفكرية والسياسية نموذجا جديدا في تجاوز تقاليد الماضي. ويقوم فحواه في ارتقاء الفكرة إلى منظومة. بمعنى أن نشاطه السياسي لم يكن نتاج فكرة جزئية عقلية أو وجدانية، كما أنه لم يكن رد فعل عابر. من هنا سبب فاعليتها الباطنية والتاريخية العميقة، التي جعلت منها إحدى أهم المراحل التأسيسية لتاريخ الانتفاض والمواجهة والتحدي للأموية وسقوطها اللاحق. فقد استطاع للمرة الأولى في تاريخ الإسلام آنذاك، إعادة حركة التاريخ الروحي ولكن بمعايير الرؤية السياسية. وهو السبب الذي جعل تقاليد التسنن السلطوية اللاحقة تتهمه بفكرة البداء والغلو والنبوة الكاذبة.

فقد كان التسّنن في العراق (وليس العراق فقط) أيديولوجيا السلطة المرفوعة إلى مصاف العقيدة "الإسلامية". وليس تتابع السلطات عليه إلا لاحتوائه على تأسيس نظري "متجانس" لفكرة الاستبداد والقبول بها وتقديسها ورفعها إلى مصاف الفكرة الإسلامية وحقيقة الإسلام. فقد كانت غايته ترمي إلى إعلاء فكرة النظام على الحرية، واحتقار الفرد ووجدانه مقابل عز السلطان والجماعة. وهو تحوير وتحويل للفكرة الإسلامية الأولى، من خلال امتصاص "قدر" الله في قدرة السلطة، ومصادرة "أسماءه الحسنى" من اجل تحسين صورة الخلفاء والولاة والسلاطين! بينما أراد المختار قلب هذه المعادلة السياسية السيئة رأسا على عقب من خلال إرجاع التاريخ الروحي للإسلام إلى

أنساقه الطبيعية بوصفها حركة سياسية اجتماعية محكومة بالعدل وغايتها مساواة البشر وحريتهم. ووضع هذه الفكرة أيضا في أول خطبة له، التي وجدت فيها تقاليد التسّنن المتشددة اللاحقة نوعا من "السجع" الذي يحاكي "القرآن"!! ففيها نعثر على العبارة التالية "فكم من باغ وباغية وقتلى في الواعية، فهلّموا عباد الله إلى بيعة الهدى، ومجاهدة العدى. فإني أنا المسّلط على المحلّين، والطالب بثأر ابن بنت خاتم النبيين".

أما في الواقع، فإننا نقف أمام فكرة سياسية عملية مباشرة معبرة عن مضمون المنظومة التي تقدم بها المختار من اجل محاربة ومواجهة الأموية والزبيرية. بمعنى أسلوب المواجهة العراقية من اجل انتزاع كيانه المستقل بوصفه قاعدة أو أساس الاستعادة الروحية لحقيقة التاريخ السياسي الذي وضع أسسه الأولية الإمام علي بن أبي طالب. وهو احد الأسباب التي دفعت بالأموية والزبيرية ومرتزقتها إلى اصطناع مختلف الأكاذيب من اجل تشويه طبيعة العلاقة بالتيار الشيعي بوصفه تيار الصيرورة الروحية العربية الإسلامية للعراق. وقد جرى ذلك عبر مستويات وأشكال عديدة. منها ما يتعلق "باستحواذ" المختار على حب الناس لآل البيت، أو محاولة تقديم نفسه باعتباره الناطق العملي باسمهم، أو انه استعمل مختلف الحيل لكي يصل إلى غايته باسمهم. وقد تراكمت في مجرى عقود من الزمن كمية كبيرة من

الأكاذيب، استمرت فيما يبدو حتى زمن جعفر الصادق[1]. فهناك رواية كاذبة تقول، كيف أن البعض شاهد وسمع الإمام السجاد وهو واقف على باب الكعبة يلعن المختار. وان هناك رجل استفسر منه

- لم تسبه وقد ذبح فيكم؟

- انه كان كذابا!

ووجدت هذه الرواية فيما يبدو ردها غير المباشر في الحكاية التي تروي حادثة دخول شيخ من أهل الكوفة على الإمام الباقر، وأخذ يده ليقبلها فمنعه الباقر متسائلا:

- من أنت؟

- أبو الحكم بن المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

- وما الذي حدث؟

- أصلحك الله أن الناس قد أكثروا في أبي القول، والقول قولك!

- وأي شيء يقولون؟

[1] يمكن سماع صدى هذه الظاهرة حتى في كتاب ابن نما من رجال القرن السادس الهجري. ففي كتابه (رسالة شرح الثار) نعثر على سبيل المثال العبارات التالية "وقد أسلفنا من أقوال الأئمة في مطاوي هذا الكتاب مدح الأئمة له، ونهيهم عن ذمه، ما فيه غنية لذوي الأبصار وبغية لذوي الاعتبار. وإنما أعداؤه عملوا له المثالب ليباعدوه من قلوب الشيعة، كما عمل أعداء أمير المؤمنين عليه السلام له مساوئ". كما نراه يعتب من ذمّ المختار بعبارات عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله "اعلم أن كثيرا من العلماء لا يحصل لهم التوفيق بفطنة توقفهم على معاني الألفاظ، ولا رويةَ لهم تنقلهم من رقدة الغفلة إلى الاستيقاظ. ولو تدبّروا أقوال الأئمة في مدح المختار، لعلموا أنه من السابقين المجاهدين الذين مدحهم الله في كتابه".

- يقولون "كذاب"! ولا تأمرني بشيء إلا قبلته!

- سبحان الله! أخبرني أبي (السجاد) أن مهر أمي مما بعث به المختار إليه! أو لم يبن دورنا؟ ويقتل قاتلنا؟ ويطلب بثأرنا؟ فرحم الله أباك! ما ترك لنا حقا عند أحد إلا طلبه[1].

إن هذه الرواية بدورها اقرب إلى الحبكة الأيديولوجية، لكنها واقعية من حيث تكثيفها للمخزون التاريخي المتعلق بشخصية المختار وموقفه من آل البيت. ووجدت هذه الفكرة تعبيرها في العبارة المنسوبة للباقر، التي يقول فيها "لا تسبوا المختار! فإنه قتل قتلتنا، وطلب ثأرنا، وزوج أراملنا، وقسم فينا المال على العسرة". إذ تكثّف هذه العبارة مواقف المختار في مجرى الانتفاضة العارمة ضد الأموية في العراق. فمن المعلوم عنه انه قرن الأخذ بالثأر من قتلة الحسين بإرسال رؤوس الكبار منهم مثل رأس عبيد الله بن زياد (حاكم الكوفة والعراق) وعمر بن سعد (قائد جيشه) وآخرين إلى مكة والمدينة. كما تروي لنا الكتب المؤرخة لهذه الحوادث كيف أن الإمام علي بن الحسين حالما وصلت رؤوس قتلة أبيه سجد وقال "الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى الله المختار خيرا". ويضيف اليعقوبي إلى هذا الكلام قول البعض، بأنه لم ير علي بن الحسين يوما قط ضاحكا منذ قتل أبوه إلا في ذلك اليوم. كما تنسب لمحمد بن الحنفية بهذا الصدد كلمات تقول "اللّهم لا تنس هذا اليوم للمختار!

---

[1] الرواية مفصلة في رجال الكشي.

واجْزِه عن أهل بيت نبيك محمد خير الجزاء.. فوالله ما على المختار بعد هذا مِن عتب". بل وتنسب إلى فاطمة بنت علي قولها "ما تخضبت امرأة من العلويات، ولا أجالت في عينيها مزودا، ولا ترجلت، حتى بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد إلى المدينة". وهي رواية صدقها الإمام الصادق في معرض ثنائه على المختار، نقلا عن أبيه الباقر، عندما قال، بأنه ما امتشطت فينا هاشميّة ولا اختضبت حتى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين. كما قام المختار حسب بعض الروايات بإرسال مبلغ عشرين ألف دينار إلى علي بن الحسين فقبلها، وبنى منها دار عقيل بن أبى طالب، ودارهم التي هدمت. كما أن هناك رواية تقول، بان المختار أرسل مع رؤوس قتلة الحسين مبلغ ثلاثين ألف دينار إلى محمد بن الحنفية.

إن مواقف المختار وموقعه من آل البيت هو جزء (جوهري) من عقيدته السياسية. لكنه يتميز، شأن كل شخصية تاريخية كبرى (مثقفة) بفردانية خاصة، تراكمت وفعلت من خلال معاناته تجسيد حقائق "المرجعية الأبدية" للروح. ومن ثم لم يكن انتمائه "للتشيع" نفيا لفردانيته الأصيلة. على العكس! انه وجد من خلاله أسلوب تحقيقها في وحدة العلم والعمل، وتجسيدها في نوعية وكمية معاناة الهموم الكبرى والصغرى للروح والجسد الفردي والاجتماعي، أي كل ما سيحصل لاحقا على تسمية المختارية. وترتسم هذه

الملامح الدقيقة والعميقة لهذه الخصوصية حالما ننظر إليها بمعايير التاريخ السياسي والروحي.

بعبارة أخرى، إن حركة المختار تيار قائم بذاته، بوصفه حركة أو فرقة تلتقي بالكيسانية والكسائية من حيث الانتماء العام للتشيع وتيار المعارضة للسلطة الأموية. ومن ثم فهي جزء جوهري، بسبب طابعها التأسيسي وريادتها التاريخية فيما أسميته بنمو الفكرة القادرة على أن تصبح منظومة، والمنظومة القادرة على أن تنمو في تاريخ العقل النظري والعملي بوصفها السبيكة الحية لوحدة العقل والوجدان. وفي هذا يكمن سر اتهام المختار بالنبوة الكاذبة.

الفصل الثالث

"نبوة" المختار – قدر التاريخ وقدرة الروح!

وليس مصادفة أن يجري الانهماك اللاحق في اختلاق مختلف الروايات وتهويل "الكذب" فيها، وبالأخص من خلال فبركة التشنيع الأيديولوجي عما يسمى بادعائه بالنبوة. ويمكن فهم المضمون التاريخي لهذا الاتهام باعتباره الصيغة المتحاملة على ما في إبداعه العملي من بديل ارتقى إلى مستوى التهديد الشامل للنظام السياسي السائد آنذاك. فالاتهام بالنبوة "الكاذبة" هي الصيغة التي تميز جمود العلاقات السائدة، التي ترى في كل انقلاب جذري أو شامل عليها شكلا من أشكال "السحر" و"الهذيان" و"الكذب" و"الدجل". ونعثر على هذه الصيغة في اتهامات العرب الجاهلية للنبي محمد. إذ لم يتركوا كلمة في قاموس اللغة المتداول آنذاك دون أن يجري لصقها به، بما في ذلك محاولات "إقناعه" بالعلاج إن كان يحس في أعماقه "شيطانا" يؤذيه! بينما لم تكن حقيقة "الشيطان" هنا سوى الصورة المخيفة التي ترتسم في خيال القوى الخائفة من إمكانية اندثار وجودها الهادئ خارج وجود الأشياء الطبيعي، أي حرارة الحياة القاسية وزمهرير الموت المفاجئ! وذلك لأنها تنظر إلى الحياة باعتبارها حكرا أبديا لها. وليس مصادفة فيما يبدو أن يقول المختار في أول خطبة سياسية له في مسجد الكوفة "الحمد لله الذي وعد وليه النصر وعدوّه الخسر، وجعله فيه إلى

آخر الدهر وعدا مفعولا وقضاء مقضيا!". وهي فكرة بسيطة ومباشرة، لكنها عميقة وحقيقية. بمعنى أنها تحتوي بقدر واحد على حكمة التاريخ والأخلاق والوجود وما وراءه. وذلك لأنه قرن الانتصار وبقاءه بالحق. واعتبر العمل من اجل هذه الحقيقة البسيطة العميقة والأبدية ثمرة ممكن قطافها عندما توضع بأفواه الجمهور وعقولهم وأفئدتهم، بوصفها الصيحة الضرورية للعقل الجريء والنفس الحرة.

من هنا كان اتهامه بالنبوة الوجه الآخر لنبوته الفعلية. لقد أرادوا سلبه "المقدس" من خلال صيغة الجحود. لكن المثقف الكبير "نبي" بالضرورة، بمعنى انه يعمل بمعايير ومقاييس الوحدة الخفية للتاريخ والمطلق، أو الجسد الاجتماعي وميتافيزيقيا الروح. ومن ثم لم يكن الاتهام بالنبوة سوى نفسية السلطة، وأيديولوجيتها "السنيّة" التي تجد في كل خروج على رؤيتها جحودا وكذبا ودجلا. وحالما يرتقي هذا الجحود إلى منظومة تقويض أسسها، آنذاك تصبح "النبوة الكاذبة" قمة الاتهام والشتيمة. وقد حصل هذا الشيء مرات عديدة. تماما كما أن تهمة "الغلوّ" هي الصيغة الفقهية التي كانت ترمي إلى "حق" إهدار دماء الخارجين على السلطة واستبدادها. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن المختار قد جمع في ذاته ومفاهيمه ومبادئه وحركته السياسية "النبوة" و"الغلو". من هنا يمكن فهم سعة وشراسة الاتهام السلطوي له ولحركته الفكرية والسياسية.

لقد كانت السلطة الأموية والزبيرية تدركان خطر "النبوة" في المختار، وذلك بسبب اختزاله القرآن إلى فكرة وعقيدة الثأر الشامل من الاستبداد والظلم والانحراف الروحي والأخلاقي للسلطة عن قيم الإسلام الكبرى التي وجد نموذجها الفعلي في شخصية الإمام علي بن أبي طالب. دون أن ينفي ذلك استقلاله الجريء وبالأخص في ميدان الرؤية السياسية والتاريخية. فقد كانت السلطة تدرك قدسية الثأر عند المختار. أنها كانت ترى فيه "نبي الثأر". فأبقت على الأولى من اجل رفعه إلى مصاف الكافر الملحد الزنديق الدجال! أنها أرادت بطريقتها الخاصة الثأر من ثأره بإعلانه دجالا. لكنها صنعت منه نبيا بين المثقفين، استعاد في شخصيته النموذج التاريخي الرفيع للنبي محمد من حيث ربطه القول بالعمل، والدفاع عن المستضعفين بالانتقام من طغاة المال والجاه. لاسيما وأنها نفس الارستقراطية القرشية القديمة بعد أن تلبست بلباس الإسلام والخلافة. وليس مصادفة فيما يبدو أن يقول المختار في معرض تعليقه على معاقبته وتتبعه لقتلة الحسين "لو قتلت ثلاثة أرباع قريش لا يساوي قيد أنملة من أنامله!". وهو موقف وجدت فيه "أشراف" الكوفة والعراق والشام والحجاز خطر "النبوة" القادمة. من هنا سرعة الاتهام، التي جعلت آذان الأشراف لا تسمع غير "سجع" المختار، مع أن ذوق البيان العربي لا يتعارض مع السجع، كما انه ارتقى لاحقا إلى مصاف الصيغة المثلى والنموذجية للإبداع الأدبي في الكتابة والخطابة.

ومع ذلك لم يسجع المختار.أما النماذج التي تقدمها كتب "السنة" المتشددة، فهي اقرب ما تكون إلى أكاذيب سهلة التأليف. بمعنى أنها حتى لم تجهد نفسها في وضع ما يمكنه أن يكون مغريا للمستمعين. فقد كانت الكوفة مدينة اللغة العربية في أصولها الأولية، بمعنى إنها كانت تطالب المرء بالبقاء ضمن عبارة العربية الدقيقة والجميلة والعميقة. وكل من يتابع ولو بقدر ضئيل خطابات العرب آنذاك، فانه سوف يقف أمام نماذج رفيعة للغاية لا يمكن للمرء أن يتحول بينها إلى "نبي" دون أن يبزها جميعا. وما تقدمه كتب الاتهام والتزييف لا تعدو عبارات يقدر عليها كل مبتدى ضعيف الذوق[1]! وقد جمع البغدادي كثير منها في كتاب (الفرق بين الفرق)، مثل "أما والذي انزل القرآن، وبيّن الفرقان، وشرّع الأديان، وكره العصيان، لاقتلن البغاة من أزد عمان، ومذحج وهمدان، ونهد وخولان، وبكر وهزّان، وثعل ونبهان، وعبس وذبيان، وقيس وعيلان"، و"حق السميع العليم، الحي العظيم، العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم، لاعركن عرك الأديم، أشراف بني تميم"، و"الحمد لله الذي جعلني بصيرا، ونوّر قلبي تنويرا، والله لأحرقن بالمصر دورا، ولأنبشن بها قبورا، ولأشفين منها صدورا، وكفى بالله هاديا ونصيرا"، و"برب الحرم، والبيت المحرم، والركن المكرم، والمسجد المعظم، وحق ذي القلم، ليرفعّن لي علم،

[1] وقد يكون ذلك كما يقال اليوم جزء من "حملة دعائية" لإظهار سخافة العبارة المميزة "لقرآن" المختار. ولكن من الصعب تسخيف ذوق العرب اللغوي آنذاك. ومن الحماقة تصور استعداد أو قبول الناس لهذا النمط من "السجع" الذي يورده البغدادي. كما أن الخطب الفعلية التي توردها كتب التاريخ عن المختار تكشف عن مدى دقة العبارة وجزالتها وكثافتها المعنوية.

من هنا إلى إضم، ثم إلى أكناف ذي سلم"، "أما وممشي السحاب، الشديد العقاب، السريع الحساب، العزيز الوهاب، القدير الغلاب، لانبشن قبر ابن شهاب، المفتري الكذاب، المجرم المرتاب"، و"أما ورب السماء، لتنزلن نار من السماء، فلتحرقن دار أسماء"، فانتهى الخبر إلى أسماء بن خارجة، فقال "سجع بي أبو إسحاق، وانه سيحرق داري". فهرب من داره. وبعث المختار إلى داره من احرقها بالليل، واظهر من عنده أن نارا من السماء أنزلت فأحرقتها[1].

إننا نقف أمام صيغ تتسم بقدر كبير من الزيف والتزييف. ففي تلك النماذج التي تنبعث منها رائحة القبلية في "السجع" هي ليست إلا إنتاج تفكير قبلي صرف. بينما كان شعار المختار "يا لثارات الحسين"، أي أن شعاره يقوم في الثأر من قتلة الحسين. ومن ثم فلا قبلية فيه. كما أن سلوكه منذ صعوده السياسي حتى موته كان تجسيدا نموذجيا لهذا الشعار، بما في ذلك في جميع الروايات التاريخية المؤيدة والمعارضة. ومن ثم يمكننا القول، بان المختار هو أول من تجاوز فكرة القبيلة في التاريخ السياسي العربي، من خلال إشراك الموالي والأعاجم في وحدة إسلامية اجتماعية مبدأها المساواة وغايتها الحرية. وبالتالي ليست "آيات السجع" التي يوردها البغدادي إلا نماذج تعبيرية لذوق صحراوي، من أعراب البادية. فهي لا تحتوي على أي قدر من الإحساس المديني والاجتماعي المميز لشخصية المختار. وبحصيلتها هي نماذج عن شكل

[1] البغدادي: الفرق بين الفرق، بيروت، 1985، ص31 -34.

ومضمون الصيغة المستعملة من جانب السلطة وتقاليد التسّنن التابعة لها، في محاربة الأعداء. ولا غرابة في الأمر إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنها تقاليد لم تجد حرجا في وضع المئات من الأحاديث المزيفة على النبي محمد نفسه، وتقديم نفسها باعتبارها ممثلة "السّنة النبوية"!! فالأحاديث السنيّة عنه في اغلبها هي كتلة من الأكاذيب والافتراء على النبي محمد، بحيث أصبح النبي محمد كذابا وعرافا ومتنبئا وكاهنا من الدرجة الأولى!! مع أن القرآن من ألفه إلى يائه لا يحتوي على تنبؤ واحد!! انه يتكلم حول يقين النصر الملازم للحق والعدل وليس لله علاقة مباشرة بتاريخ الصراع اللاحق. وذلك لما في إدخال الله في صراع العائلات والقبائل من تسخيف شنيع لفكرة الوحدانية الدينية نفسها. خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار انه عادة ما يجري تحويل الله إلى آلة ودمية صغيرة بيد المجرمين والقتلة!!

غير أن للصراع السياسي أنبياءه وكذبته، ملائكته وشياطينه. ومن ثم لم يكن بإمكان المختار أن يتخلص من هذه الوحدة المتناقضة في مصالح القوى السياسية المتضادة. وليس مصادفة أن تكون تقاليد التشيع هي تقاليد الدفاع عنه، بسبب طبيعة الترابط بينهما في تاريخ الوجدان والرؤية العامة عن الحق وتاريخ الروح، وبالضد منه تاريخ التسنن السلطوي وهيامه بتقاليد الاتهام والتكفير والتحريم والتجريم والخنوع للإمام برا كان أو فاجرا! من هنا كمية التزييف الهائل تجاه مواقفه من الموقع السياسي للمختار في التاريخ السياسي

للإسلام، وموقعه الروحي في التاريخ الروحي للإسلام. ووجدت هذه الظاهرة تعبيرها فيما يسمى بابتداع المختار فكرة البداء، أي إمكانية تغير الله لمواقفه! وهي فكرة تريد "البرهنة" على أن أول المختار ادعاء بالنبوة الكاذبة ونهايته تكذيبا لله! وتعكس هذه الدورة من حيث الجوهر ملامح الذهنية المحترفة في تصنيع الكذب والخداع المميز للأموية وتقاليدها "السنيّة". إذ تحولت هذه التقاليد لاحقا إلى تيار قائم بذاته بعد أن جرى الافتراق التاريخي بين السنة والشيعة. أما من الناحية التاريخية، فقد كان تصنيع الكذب العقائدي ضد المختار شكلا من أشكال الهجوم المضاد على موقعه السياسي في التاريخ السياسي للإسلام. وهو واقع يمكن رؤية اغلب مفاصله في تفسير ظهور فكرة البداء المنسوبة له. فقد كانت هي من حيث الجوهر "البدعة" العقائدية للرؤية "السنية" السلطوية تجاه برنامجه السياسي الاجتماعي. إذ نعثر عند البغدادي نفسه، على سبيل المثال، كيفية تفسيره لظهورها. فنراه يورد الشائعات والأحداث التاريخية عبر موشور وعيه العقائدي، لكن مضمونها يبقى واقعيا فيما لو جرى النظر إليه بمعايير التاريخ السياسي. فهو يشير إلى أن سادة الكوفة وأشرافها الذين طردهم المختار، وحقدهم على العبيد والموالي، وبقاء إبراهيم الاشتر في الجزيرة وعدم رغبته بمناصرة المختار لما يسمى بانزعاجه من "سجع" المختار و"تكهنه"، يكشف عن طبيعة القوى والأسباب القائمة وراء معارضته. ومن الناحية السياسية، أدى تجمع حزب "الأشراف" ضد حزب

"العبيد والموالي" إلى إغراء مصعب بن الزبير بالقضاء عليه. وبعد أن تم لهم ما أرادوا، نسبوا إليه تفسير سبب هزيمته، بأنه كان يقول لجيشه قبل المعركة بأنهم منتصرون لا محالة. وعندما يستفسرون منه عن كيفية معرفته ذلك، فانه كان يجيب "الوحي أعلمني"!! وهي صيغة بدائية. والقضية ليست فقط في أن كل من يخوض معركة يسعى للفوز فيها، وان التأكيد على الفوز هو احد شروط الفوز وإلا فلا معنى للإقرار بالهزيمة والاشتراك في معركة خاسرة! غير أن جيشه حالما تعرض للهزيمة لم يجد سوى تبريرها بفكرة البداء، أي ينسبون له عبارة "إن الله وعدني بالنصر لكنه بدا له" مستندا بذلك إلى الآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت)[1]. ذلك يعني، أن فكرة البداء المنسوبة إليه، ليس إلا الصيغة العقائدية الكاذبة والمنحولة للقضاء على موقعه السياسي في التاريخ السياسي للإسلام

أما من الناحية الروحية، فقد جرت محاولة الانتقام منه من خلال ربط مأثرته الروحية بفكرة التكهن. وهي نفس فكرة البداء من حيث أسبابها السياسية والاجتماعية، لكنها "تتسامى" من اجل إيجاد الخط الموازي للافتراء الجسدي بالافتراء "الروحي. وهي صفة مميزة للتقاليد "السنّيّة" السلطوية العقائدية التي لا يحكمها من حيث الجوهر غير العبودية للسلطة والسلطان. كما يمكن رؤية البواعث غير المباشرة لهذه الصيغة فيما أورده البغدادي بهذا

---

[1] البغدادي: الفرق بين الفرق، ص34.

الصدد. فهو ينقل لنا كيف أن "أهل الكوفة خرجوا على المختار لما تكهن. واجتمعت السبئية إليه مع عبيد أهل الكوفة، لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم وقاتل بهم الخارجين عليه". وكيف انه ظفر برجل يقال له سراقة بن مرداس البارقي. ومن خوفه قال لمن أسره تخوفا من أن يقتله المختار "ما انتم أسرتمونا ولا انتم هزمتمونا بعدتكم، وإنما هزمتنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البلق فوق عسكركم". فأعجب المختار قوله هذا فأطلق سراحه!!"[1] كذا وبكل بساطة!! والشيء نفسه يمكن قوله، عن محاول "التدليل" على أن ادعاءه بالنبوة كان تحت تأثير السبئية (!) الذين قالوا له "أنت حجة هذا الزمان" وحملوه على دعوة النبوة، فادعاها عند خواصه، حيث زعم أن الوحي ينزل عليه وسجع بعد ذلك"[2]

---

[1] المصدر السابق، ص33.

[2] المصدر السابق. إن البحث عن جذور "يهودية" في الحركات المناهضة للسلطة هي ديدن الإيديولوجية السنيّة المبتذلة. فالسبئية هي ليهودي اسلم. وهي التهمة التي يمكن استخدامها بسهولة لتضليل العوام. والتيارات السنيّة العقائدية السلطوية هي تيارات الابتذال الدعائي. (مع أنها ترفع من شأن اليهود الذين اسلموا وجعلوا منهم، بسبب خنوعهم للسلطة مثل ابن سلام "صحابة" مبجلين!! ولا خلاف حول صحابته أو قدره من التبجيل، غير انه عادة ما يجري تحويل تحوله من اليهودية إلى الإسلام فضيلة، ومن أعداء السلطة رذيلة! هنا يجري نقل كل "تراث اليهودية الخرب" إلى سطح الاتهام والشتيمة. بينما يجري تناسي ثقل "الإسرائيليات" التي جرى حشو الحديث "النبوي" حالما يكون لمصلحة السلطة!! وقد جرى شحذ هذه الصفة في مجرى الصراع مع المختار. وفي وقت لاحق سوف يجري اتهام اغلب ممثلي التيارات المناهضة للسلطة بهذه التهمة، بمعنى الخلط بين "اليهودية" و"السحر" و"الشياطين". ومفارقة الظاهرة تقوم في أنها تستعيد نفس الاتهامات التي جرى توجيهها للنبي محمد في مجرى صراعه مع الوثنية و"أشراف" قريش. فقد اتهموه بالسحر ولعب الشياطين فيه وانه يردد أساطير الأولين. وليس ذلك مصادفة بفعل سيادة الأموية القرشية، التي تربت شخصياتها الأولى بتقاليد الوثنية القرشية الارستقراطية التامة مثل معاوية بن أبي سفيان وأبنه يزيد الذي تربى بين قبائل العرب الوثنية من

لقد أرادت هذه الصيغة الساذجة كشف "سذاجة" المختار أو استعداده لقبول أية فكرة ما زال بإمكانها مد رحيقه السياسي بلعاب الزيف والدجل! لكنها رواية تستند إلى "مأثرة" نكرة جبانة تفتعل الأقاويل الكاذبة للخلاص من مواجه الموت، بحيث تصبح "شخصية إسلامية" ومصدرا للتدليل والبرهنة والصدق!! بينما تحتوي كل الأخبار والروايات التاريخية المدونة على معطيات تكشف عن صلابة وعقلانية المختار الثقفي ونزوعه الإنساني. وهي صفات لا يمكنها التوافق مع خزعبلات وترهات التزييف العقائدي.

فقد كانت حركة المختار استمرارا أشد تجانسا لحركة التوابين. وبالتالي، فهي حركة محكومة في نياتها وغايتها بفكرة جليلة وروح متسام، ألا وهو الاستعداد التام لمواجهة الاستبداد والظلم، والقدرة على التضحية بالنفس من اجلها. وهي الخاتمة التي توج بها المختار حياته، بعد أن استطاع إرساء أسس جديدة لفكرة المواجهة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية ضد الاستبداد وانعدام الشرعية في الدولة. وحاول بناء هذه الأسس على مبادئ العدل والمساواة والحرية. وقد أرعبت هذه النتيجة السلطات والأشراف على السواء وخدمتها وسدنتها الجدد. من هنا بحثها عن كل ما بإمكانه إثارة اللغط أو

حيث عاداتها وتقاليدها. لهذا ليس مصادفة أيضا أن يجري اتهام الحركات المناهضة للسلطة، وبالأخص الشيعية منها بالسحر والشيطنة و"اليهودية"، فقد اتهم المغيرة بن سعيد، على سبيل المثال بالسحر. وقيل عنه كان يتعلم السحر عند عجوز يهودية بالكوفة! وانه كان دائم الاتصال بالشياطين!!

التشويش على شخصه وتاريخه. ذلك يعني، أن هذه المحاولات ليست إلا الصيغة العقائدية الكاذبة والمنحولة للقضاء على موقعه الروحي في التاريخ الروحي للإسلام.

بعبارة أخرى، ليست محاولات اقتلاع المآثر السياسية والروحية للمختار وطمس أثره من تاريخ الإسلام السياسي والروحي، ومحاولة حشره ضمن نطاق مذهبي ضيق وتطويقه بقيود الغلو والخروج على الإسلام، سوى الصيغة الأيديولوجية والعقائدية التقليدية لتقاليد الاستبداد والعبودية المميزة للخلافة الأموية واستمرارها اللاحق. لقد حدست فيه ممثلا نموذجيا لفكرة العدالة والمساواة والحرية المبنية على أساس الحق والحقوق. من هنا شراسة هجومها ضده. ذلك يعني أنها مواجهة كانت تحتوي في أعماقها على انتقال تأسيسي لاضمحلال مرحلة وجيل وبروز منظومات وفكر يناسبها.

فالحركات الفكرية الراديكالية التي تتسم بقدر هائل من الوجدان السياسي والعنف العملي، كما هو الحال بالنسبة للمختار والمختارية، سرعان ما تحترق وتتلاشى في رماد الخريف السياسي لتنتعش في ربيع الإبداع الروحي والثقافي. وبالتالي، فأن مأثرة المختار تكمن أيضا في انه أول من جسّد هذا الانتقال في حركة سياسية اجتماعية ذات أبعاد كونية (إسلامية). ومن خلالها جرى تراكم مختلف التصورات والأحكام العقائدية واجتهادها اللاهوتي والفلسفي كما سنراه لاحقا في قضايا مسئولية الفرد، والاختيار، وأمة الحق،

وأمة الباطل، والإمامة، والعصمة وغيرها. وقد نفّذ هذه المهمة في بادئ الأمر من أسميته بالمثقف المجاهد والمقاتل، ولاحقا أعلام الفكر ومنظوماته النظرية، بوصفها الذروة الأولية لتحول "مسرحية" التاريخ المعذب إلى فصول لم تعد أدوارها تنفذ في أطراف الكوفة، بل في العقل والضمير الاجتماعي للأمة الثقافية والإمبراطورية (الخلافة).

الخاتمة

لقد انتهى مقتل المختار بإخماد أغلب الحركات الاجتماعية السياسية المناهضة للنظام الأموي. فالمناهضة الزبيرية، لم تكن تحتوي في أعماقها على بديل فعلي للأموية. وذلك لأنها كانت من حيث مقوماتها وغايتها وأساليبها وإيديولوجيتها احد أوجه الأموية، أي لخلافة الملك العائلية والقبلية. فقد كانت السلطة مبدأها وغايتها. ومن ثم لم يكن بإمكانها، حتى في حال افتراض فوزها، أن تنتج غير أموية جديدة، أو زبيرية. وكلاهما ما كان بإمكانه العيش طويلا. من هنا لم يكن الفراغ الذي أنتجه الاستبداد الأموي، سوى هدوء العاصفة. وذلك بسبب طبيعة التطور الإمبراطوري للدولة. وهو تطور كان يتعارض في اغلب مكوناته مع الإيديولوجية العامة المعلنة (الإسلام ومبادئه التوحيدية) والاستحواذ العائلي على أراض شاسعة وقوى متمرسة ومتعركة بمشاعر الحرية، من تجارب "جاهلية" و"إسلامية" حية في الذاكرة والوجود الفردي والجمعي للعرب. وبالتالي، لم تفعل السياسة الدهائية للأموية من استجلاب الزنج (العبيد) واستيطانهم في العراق، إضافة إلى الموالي سوى العصا السحرية التي انقلبت على ساحرها.

فالتجارب التاريخية للدول والأمم تبرهن على أن استعمال الأساليب الخبيثة والماكرة للقضاء على المعارضة أو تصفية الحساب معها، لا يؤدي في نهاية المطاف إلا إلى إنتاج "ثمار خبيثة" ينبغي للسلطة أن تتحمل مهمة قطافها

وتذوق مرارتها. وهي حالة حالما تتكرر فإنها تؤدي بالضرورة إلى إنتاج ثمار قاتلة. وهو سب انقراض بالأموية التام بعد عقود من القضاء المتواتر على القوى الاجتماعية والسياسية والفكرية الداعية لتنظيم أسس الوجود العام والخاص للدولة والمجتمع. أما التغييرات الاجتماعية التي حاولت الأموية من خلالها إخلاء ساحة المعارضة، فإنها لم تؤدي، كما هو الحال بالنسبة لتهجير الكثير من القوى الحية العراقية إلى خارج ديارهم، إلا على توسيع تأثيرهم الروحي، والعودة بذكريات الماضي والرغبة في الثأر وتصفية الحساب.

وذلك لان استجلاب الزنج من إفريقيا، والزط من الهند وعزلهم في أوحال الجنوب العراقي قد جعل منهم عروقا جديدة لنخيله، أو ادمجهم في صرح التقاليد البصرية والكوفية، أي العراقية القادرة على هضم كل هذا الكم المتنوع وإعادة إنتاجه عبر التشيع لفكرة الحق والعدالة والمساواة والحرية، إلى ظهور الحركات الفكرية العقلانية والإنسانية[1]. إذ أن منع "الأعاجم" و"الموالي" من إمامة الصلاة وتولي القضاء، كما فعل الحجاج الثقفي (ت – 95)، لم يمنعهم من الاندماج في صفوف المصلين والانخراط في حركة

[1] لقد لعب التشيع العراقي (العربي) دورا تأسيسيا بالنسبة لفكرة الحرية والوحدة الإنسانية. وهو السبب الذي جعل من أئمته على الدوام مكونات وشخصيات جوهرية بالنسبة للتصوف والفلسفة. وقد تحولت سياسة الأئمة الشيعة إلى نموذج فردي بهذا الصدد، بوصفه الأسلوب المعوض عن صعوبة تحقيقه في ميدان الدولة ككل. حيث تشير المصادر التاريخية الموثقة بهذا الصدد إلى أن الإمام علي السجاد لوحده قد حرر حوالي خمسين ألفا من الموالي بمختلف قومياتهم. ومهما يكن من أمر هذا الرقم، فان مجرد ارتباطه، بما في ذلك من الناحية الكمية، يشير إلى أهمية وقيمة فكرة التحرير والحرية ومناهض العبودية ووجود العبيد.

المتشيعين للعراق بوصفها أيضا حركة التشيع للحق والمساواة والحرية والإخاء. وهي الصيغة التي سوف تبرز بوضوح شديد بين كل الحركات الكبرى، العقلانية كالمعتزلة واللاعقلانية مثل حركات "الغلو" المتنوعة. وكل منهما ولد في البصرة أو الكوفة، واسهما في مد الأديم العراقي بدماء الحياة النابضة في فكرة الكونية المتسامية والعربية الثقافية. وهي دماء جرى في بداية الأمر سكبها في معارك عديدة، بدأ من المختار ومرورا بانتفاضة عبد الرحمن ابن الأشعث وقتله عام 81 للهجرة، وانتفاضة الوصفاء الأحرار عام 119 للهجرة، ثم انتفاضة أبو منصور العجلي عام 121 للهجرة، ثم انتفاضة زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد، وانتهاء بانتفاضة عبد الله بن معاوية الطالبي (الجعفري) عام 126 للهجرة، التي شكلت مقدمة صعود العباسيين إلى السلطة، بوصفه الانقلاب التاريخي والثقافي الهائل للصيرورة العربية الإسلامية.

لقد كان الانقلاب الجديد، تحولا عاصفا في بنية الدولة والثقافة. وهو تحول لم يكن معزولا عما في تاريخ العراق من تراكم مناهض للأموية بوصفها أسلوب الإدارة القبلي للدولة، والعنصري في موقفه من مكونات الإمبراطورية الجديدة. فقد أسهم هذا التراكم المادي والمعنوي والفكري في شحذ الطاقة العارمة لوجدان القضاء على الأموية، من خلال إشراك مختلف مكونات الإمبراطورية بشعوبها وأديانها وأصولها الثقافية المتنوعة في تأسيس الأبعاد

الثقافية للنزعة الكونية الإسلامية وعقيدتها التوحيدية. بمعنى انه اخذ يستجيب لما في عقائد الإسلام الكبرى من إمكانية للتوحيد الثقافي وتغليبها مع مرور الزمن على مكوناته القومية. وهو تحول جعل من الممكن انتقال العرب من الأمة العرقية إلى الدينية، ومنها إلى الأمة الثقافية. وهو تحول أسهم فيه العراق بدور المحرك الذي سحب خلفه كل هذه المكونات وذاب فيها من خلال معترك الروح والجسد والعقل والضمير. وهو معترك ساهم في تأسيسه المثقفون العرب المسلمون الأوائل، أي أولئك الذين كانت تتوحد في صيرورتهم وحدة التقاليد العربية والرؤية الإسلامية الكونية في مجرى البحث عن بدائل للأموية. وهي بدائل كانت تحلم بالرجوع إلى مصادر الرحيق النقية للحق، لكنها كانت تسير من الناحية الفعلية صوب تأسيس الكينونة الثقافية الجديدة للدولة والأمة. وقدموا أرواحهم قربانا لها دون رغبة في شيء غير فكرة الحق والعيش بمقاييسها. وقد كان المختار أول نماذجها التأسيسية الكبرى. فهو الشخصية المثقفة الإسلامية الأولى التي حققت من الناحية التاريخية تأسيس الأبعاد الكونية للفكرة الإسلامية. ومن ثم نقلتها إلى مصاف الأبعاد الثقافية عبر تجسيدها في مشروع سياسي اجتماعي أشرك مختلف القوى والأقوام في مهمة إدراك النفس وتحريرها العملي. وهو الشرط الضروري للانتقال آنذاك إلى مرحلة بناء الدولة والأمة الثقافية.

المحتويات

المقدمّة:...11

تقديم الطبعة الثانية:..15

الباب الأول:المختار الثقفي – الفلسفة السياسية للحركة المختارية:.........19

الفصل الأول: من التوبة إلى "الثأر":...........................21

الفصل الثاني: المختار الثقفي – التاريخ والأسطورة:............37

الفصل الثالث: المختار – اختيار التاريخ السياسي!:............57

الباب الثاني: العقيدة السياسية الجديدة وفكرة الثأر الشامل:................87

الفصل الأول: "يا لثارات الحسين" شعار الثأر الأخلاقي والسياسي..:89

الفصل الثاني: العقيدة السياسية وفكرة الثأر الشامل:...........106

الباب الثالث: البطولة والمأساة:...................................125

الفصل الأول: مأساة البديل المتسامي للحرية والمساواة:........127

الفصل الثاني: السياسة والروح – منظومة الحرية والنظام:......143

الفصل الثالث:"نبوة" المختار – قدر التاريخ وقدرة الروح!:...161

الخاتمة:...175